

الإصدار السادس والعشرون

مواعظ المفسرين

انتقاها ورتبها:

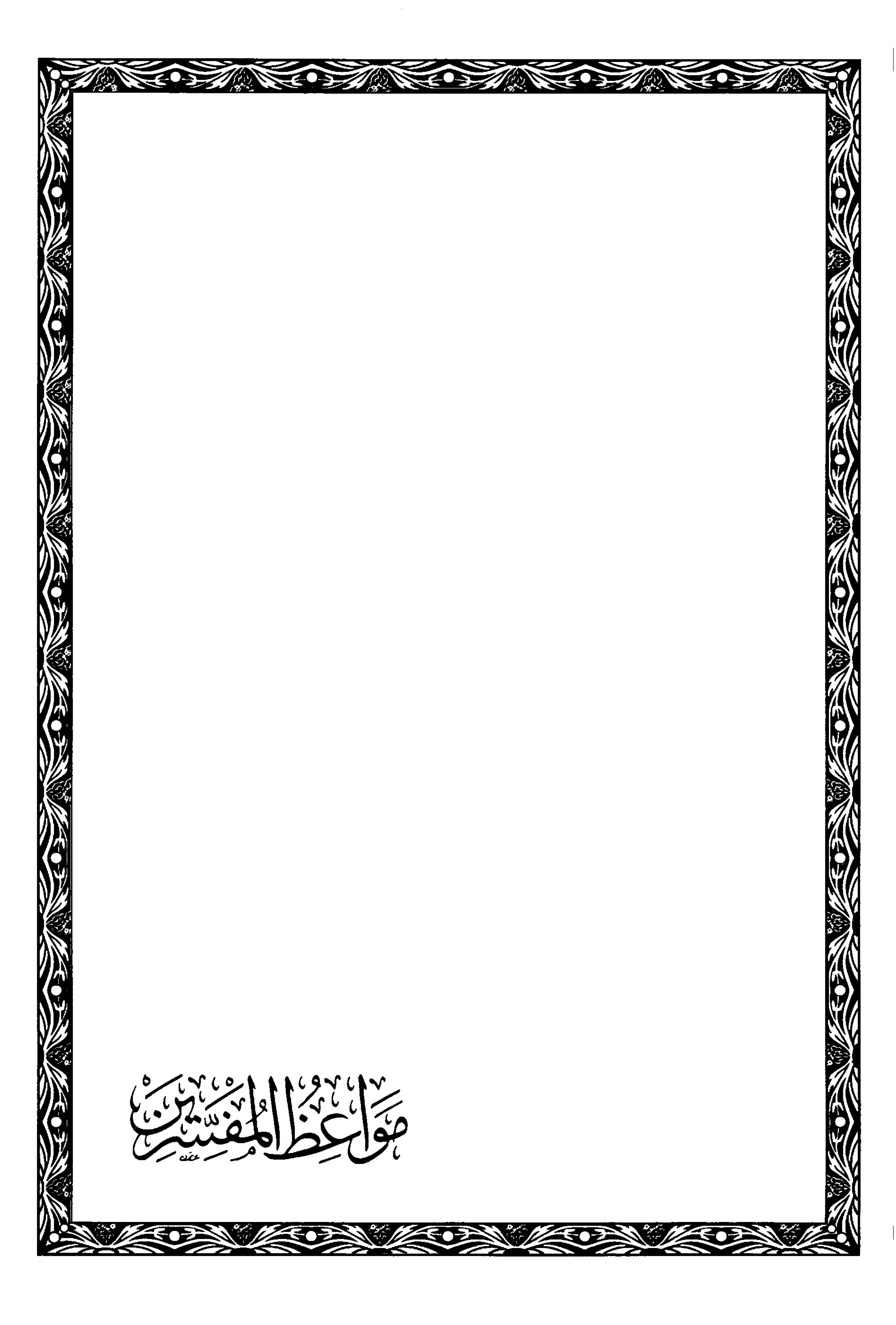
د. عمر بن عبد الله بن محمد المقبل

الأستاذ المشارك في كلية الشريعة
والدراسات الإسلامية بجامعة القصيم



كرسي القرآن الكريم وعلومه
جامعة الملك سعود




مواعظ المفسرين

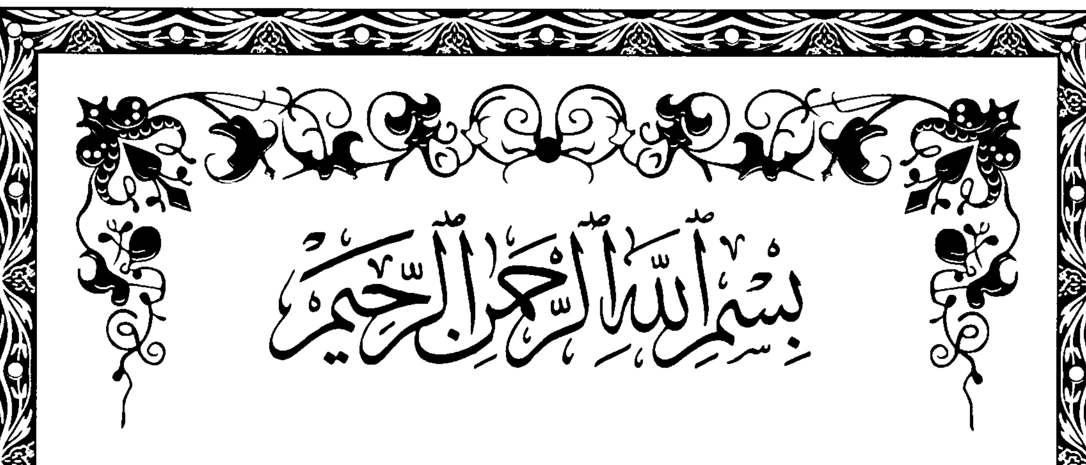
ح كرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المقبل، عمر عبد الله محمد
مواعظ المفسرين. /عمر عبد الله محمد المقبل.- الرياض، ١٤٣٦هـ
٩٦ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٢ - ٧ - ٩٠٦٢١ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - الوعظ والإرشاد ٢ - الزهد أ. العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٣٦/١٠٣٩

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ

يهتم الكرسي بنشر البحوث المتميزة والجادة
في التفسير وعلومه تحقيقاً ودراسة

جامعة الملك سعود - كلية التربية
هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٦٧٤٧٤٤ - ص.ب. ٢٤٢١٩٩ الرياض ١١٣٢٢
بريد إلكتروني: quranchair@ksu.edu.sa - الموقع: http://c.ksu.edu.sa/quranchair
تويتر: @quranchair

منافذ البيع
الرياض: ٤٤٥٦٢٢٩ / ٠١١ - مكة المكرمة: ٠١٢/٥٧٦١٣٧٧ - المدينة النبوية: ٠١٤/٨٤٦٧٩٩٩



مُقَدِّمَةُ كرسِيِّ القُرْآنِ الكرِيمِ وَعُلُومِهِ

للمفسِّرينَ في كتبِ التفسيرِ وقفاتٌ وعظيَّةٌ عند بعضِ الآياتِ التي تستَدْعِي ذلك، وهذه المواعظُ متفرِّقَةٌ في كتبِ التفسيرِ، وبعضُ المفسِّرين أكثَرُ عنايةً بها مِن غيرِه، وقد تصدَّى فضيلةُ الدكتورِ عمرَ بنِ عبد الله المُقْبِل في هذا الكتابِ إلى جَمْعِ بعضِ هذه المواعظِ؛ لتكونَ نموذجًا لعنايةِ المفسِّرين بالوَعْظِ في كُتُبِهم، وهي تمثِّلُ جانبًا مِن عنايةِ المفسِّرين على اختلافِ طبقاتِهم بالجانبِ الأخلاقيِّ، والحِرْصِ على تهذيبِ النفوسِ بمواعظِ القرآنِ التي هي أعظَمُ المواعظِ على الإطلاقِ لمن كان له قلبٌ، وأرادَ اللهُ به خيرًا.

وهذه المواعظُ المنتقاةُ التي بين يديكَ - أيُّها القارئُ الكريمُ - تصلُحُ أن تكونَ مدخلًا لبابِ الوعظِ في كتبِ التفسيرِ ودراسَتِه دراسةً مفصَّلَةً، وقد رأينا في كرسيِّ القرآنِ الكريمِ وعلومِه بجامعة المَلِكِ سعودٍ نَشْرَ هذا الكتابِ المبارَكِ؛ ليكونَ إضافةً للمكتبةِ القرآنيةِ، وزادًا للقارئِ الكريم في الاتِّعاظِ بمواعظِ القرآن ومواعظِ أهلِ القرآن مِن المفسِّرين، واللهُ الموفِّقُ للصوابِ.

أ.د. عبدُ الرَّحمن بنُ مُعاضة الشِّهري

المشرف على الكرسيّ

المُقَدِّمَة

الحمدُ للهِ الذي أنزلَ الكتابَ موعظةً ونورًا، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ وباركَ على من جعلَهُ ربُّه ـ بالقرآنِ ـ هاديًا ومبشِّرًا ونذيرًا، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا، أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ اللهَ ـ تباركَ وتعالى ـ أنزلَ القرآنَ على قلبِ محمدٍ ﷺ، ووصفَهُ بصفاتٍ كثيرةٍ تربو على الأربعين، **ومن هذه الأوصافِ**: وصفُهُ بأنه (موعظةٌ)، وقريبٌ من هذا المعنى وصفُهُ بأنَّه (ذكرى)، وهذا أمرٌ يلمسُهُ كلُّ من قرأَ القرآنَ.

ويعظمُ وَقْعُ هذه المواعظِ على النفسِ، حينما تُقرأُ بقلبٍ حاضرٍ، وسمعٍ متصلٍ بقلبٍ شاهدٍ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقالَ بعضُ المفسِّرين: «إنَّ الموعظةَ الحسنةَ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥] هي مواعظُ القرآنِ»، وكذا قيلَ في تفسيرِ قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩]؛ **أي**: عن مواعظِ القرآنِ.

يقولُ ابنُ جَرِيرٍ (٣١٠هـ) ـ في مقدِّمةِ تفسيرِهِ معلِّقًا على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] ـ: «جعلَهُ اللهُ للمؤمنينَ شفاءً، يستشفونَ بمواعظِهِ

من الأدواءِ العارضةِ لصدورِهم من وَساوسِ الشيطانِ وَخطَراتِهِ، فيَكفيهم ويُغنيهم عن كلِّ ما عَداه من المواعظِ ببيانِ آياتِهِ»[١].

ولما كانَ كتابُ اللهِ تعالى من العظمةِ بحيث لا يمكنُ الإحاطةُ ببيانِ معانيهِ ـ نزعَ المفسِّرون في بيانِ معانيه مناحيَ شتَّى؛ فمنهم الذي قصدَ بيانَ الأحكامِ، ومنهم من رامَ بيانَ المعاني، وآخرون اتَّجهوا إلى إيضاحِ أوجُهِ البلاغةِ، في ضروبٍ كثيرةٍ من التفسيرِ التي تدلُّ ـ في النهايةِ ـ على علوِّ شأنِ هذا الكتابِ، ولا أعلمَ من اللهِ بكتابِهِ حيثُ يقولُ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤].

إلَّا أنَّه ـ في الجملةِ ـ ومن خلالِ النظرِ في جملةٍ من التفاسيرِ ـ على اختلافِ مشاربِ مؤلِّفيها ومقاصدِهم في التفسيرِ ـ لم تخلُ كثيرٌ من هذه التفاسيرِ من مواعظَ يسطرُها المفسِّرُ عندَ آيةٍ ما، يهتزُّ لها القارئُ، ويشعرُ بعمقِ أثرِها في نفسِهِ، كيف لا، وهي موعظةٌ متَّصلةٌ بنورِ الوحيِ، ومنبثقةٌ منه!

لذا أحببتُ انتقاءَ بعضِ هذه المواعظِ؛ لعلَّها تكونُ موردًا للخطيبِ وإمامِ المسجدِ، وللمربِّي، وربِّ الأسرةِ في بيتِهِ، علَّها أن ترقِّقَ قلوبَنا، وتبُلَّ صَداها، وترويَ بعضَ ظَمَئِها من هذا الكتابِ العظيمِ.

وقد رتَّبتُ هذه المواعظَ على السُّورِ ثم الآياتِ، وجعلتُ بين يَدَيْ هذه المواعظِ موعظتين، هُما أشبهُ ما تكونانِ بالتوطئةِ والموعظةِ العامَّةِ بينَ يدي هذه المواعظِ.

ومن نافلةِ القولِ أن يُنبَّهَ إلى أنَّ من أرادَ أن يقرأَ في هذه التفاسيرِ

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٦٢).

من العامَّةِ أو المبتدئين في طلبِ العلمِ، فعليه أن يستشيرَ أهلَ العلمِ؛ ليُرشِدوه إلى المناسبِ له؛ إذ إنَّ هذه التفاسيرَ تتفاوتُ في لغتِها وأسلوبِها، وتحقيقِ مؤلِّفيها، وكذا سلامتُها من بعضِ المخالفاتِ العقديَّةِ، عفا اللهُ عن الجميعِ وغفرَ لهم، وجزاهم عمَّا خدموا به كتابَ اللهِ خيرَ الجزاءِ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

أسألُ اللهَ تعالى أن ينفعَ بهذه المواعظِ جامعَها وقارئَها وسامعَها، وألَّا يحرَمَنا بركةَ كتابِهِ بسببِ ذنوبِ قلوبِنا وجوارحِنا.

كتبَهُ
عمرُ بنُ عبدِ اللهِ المقبل
الأستاذُ المشاركُ في كليةِ الشريعةِ والدراساتِ الإسلاميةِ
جامعة القصيم
البريد الإلكتروني: Omar1427@gmail.com
تويتر: @dr_almuqbil
الموقع الرسمي: http://almuqbil.com



تمهيد
في فضل الوعظ بالقرآن والسنة والمنهج الشرعي فيه

تبوَّأ الوعظُ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ ﷺ مكانةً بارزةً، ومحلًّا كبيرًا؛ وما ذاك إلَّا لعظيمِ أثرِهِ في القلوبِ، وحاجةِ النفوسِ إليه، خاصَّةً معَ كثرةِ ملابسةِ الأمورِ التي تقسِّي القلبَ، وتشتِّتُ الذهنَ؛ ولهذا كانَ نبيُّنا ﷺ يتخوَّلُ أصحابَهُ بالموعظةِ، والسؤالُ: من الواعظُ؟! ومن الموعوظُ؟!

فإذا كانَ الأمرُ كذلكَ، فحاجتُنا نحنُ إلى الوعظِ أكثرُ وأكبرُ؛ فالوعظُ طريقٌ من الطُّرقِ الموصلةِ إلى الجنَّةِ؛ ينيرُ العقلَ ويصلحُ القلبَ، وأثرُهُ في حصولِ المحبَّةِ والأُلفةِ بينَ المسلمين أشهرُ من أن ينوَّهَ به[1].

يقولُ محمدُ بنُ عُبادةَ المُعافريُّ: «كنَّا عندَ أبي شُريحٍ المُعافريِّ، فكثرَتِ المسائلُ، فقالَ: قد دَرِنَتْ قلوبُكم، فقوموا إلى خالدِ بنِ حميدٍ المَهْريِّ؛ استقلوا[2] قلوبَكم، وتعلَّموا هذه الرغائبَ والرقائقَ؛ فإنَّها تجدِّدُ العبادة، وتورثُ الزهادة، وتجرُّ الصداقة، وأقلُّوا المسائلَ،

---

(١) ينظر: «نضرة النعيم» (٨/ ٣٦٣٧).

(٢) في «تهذيب الكمال» (٨/ ٤٠): (اسْقُلوا) من السقل كالصقل وزنًا ومعنى، وهو أظهر.

فإنَّها في غيرِ ما نزلَ تُقسِّي القلبَ، وتورثُ العداوةَ»[1].

إذا تبيَّنَ هذا، فلنبيِّنْ على وجهِ الاختصارِ معنى الوعظِ وحقيقتَهُ:

فالوعظُ في اللُّغةِ يدورُ على الترغيبِ والترهيبِ، **قالَ ابنُ فارسٍ**: «الوعظُ: التخويفُ، والعِظَةُ الاسمُ منه»، وقالَ الخليلُ: «هو التذكيرُ بالخيرِ وما يَرِقُّ له قلبُهُ»[2].

وقالَ الذهبيُّ: «الوعظُ فنٌّ بذاتِهِ، يحتاجُ إلى مشاركةٍ جيِّدةٍ في العلمِ، ويستدعي معرفةً حسنةً بالتفسيرِ، وإكثارًا من حكاياتِ الفقراءِ والزهَّادِ»[3].

وههنا معنًى مهمٌّ يتعلَّقُ بالوعظِ، شكا منه الصحابةُ ﷺ وخافوا على أنفسِهم من النِّفاقِ بسببِهِ، فبيَّنَ لهم النبيُّ ﷺ وجهَ الصوابِ؛ ذلك أنَّ حنظلةَ الأُسَيِّديَّ ﷺ قالَ: «لَقِيَني أبو بكرٍ، فقالَ: كيف أنتَ يا حَنظلةُ؟ قالَ: قلتُ: نافقَ حَنظلةُ! قالَ: سبحانَ اللهِ! ما تقولُ؟ قالَ: قلتُ: نكونُ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ يذكِّرُنا بالنارِ والجنَّةِ، حتى كأنَّا رأيُ عَينٍ، فإذا خرجنا من عندِ رسولِ اللهِ ﷺ عافَسْنا الأزواجَ والأولادَ والضَّيعاتِ؛ فنَسِينا كثيرًا، قالَ أبو بكرٍ: فواللهِ إنا لنلقى مثلَ هذا، فانطلقتُ أنَا وأبو بكرٍ، حتى دخلْنا على رسولِ اللهِ ﷺ، قلتُ: نافقَ حنظلةُ، يا رسول الله! فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **(وَمَا ذَاكَ؟)** قلتُ: يا رسولَ اللهِ، نكونُ عندكَ، تذكِّرُنا بالنارِ والجنَّةِ، حتى كأنَّا رأيُ عَينٍ، فإذا خرجْنا من عندِكَ، عافَسْنا الأزواجَ والأولادَ والضَّيعاتِ، نسينا كثيرًا!

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٨٢).
(٢) «مقاييس اللغة» (٦/ ١٢٦).
(٣) «زغل العلم» (ص٤٩).

فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **(وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً)** ثلاثَ مرَّاتٍ[1].

يوضِّحُ ابنُ الجوزيِّ هذا المعنى، فيقولُ: «قد يَعرِضُ عندَ سماعِ المواعظِ للسامعِ يقظةٌ، فإذا انفصلَ عن مجلسِ الذِّكرِ، عادتِ القسوةُ والغفلةُ، فتدبَّرتُ السببَ في ذلكَ، فعرَفتُهُ، ثم رأيتُ الناسَ يتفاوتون في ذلك، فالحالةُ العامَّةُ أنَّ القلبَ لا يكونُ على صفتِهِ من اليقظةِ عندَ سماعِ الموعظةِ وبعدَها؛ لسَببينِ:

أحدُهما: أنَّ المواعظَ كالسِّياطِ، والسِّياطُ لا تؤلِمُ بعدَ انقضائِها، وإيلامُها وقتَ وقوعِها.

والثاني: أنَّ حالةَ سماعِ المواعظِ يكونُ الإنسانُ فيها مُزاحَ العلَّةِ، قد تخلَّى بجسمِهِ وفكرِهِ عن أسبابِ الدُّنيا، وأنصتَ بحضورِ قلبِهِ، فإذا عادَ إلى الشواغلِ، اجتذبتْهُ بآفاتِها، فكيف يصحُّ أن يكونَ كما كانَ!

وهذه حالةٌ تعمُّ الخلقَ! إلا أنَّ أربابَ اليقظةِ يتفاوتون في بقاءِ الأثرِ، فمنهم من يعزمُ بلا تردُّدٍ، ويمضي من غير التفاتٍ، فلو توقَّفَ بهم رَكْبُ الطَّبعِ لضجُّوا، كما قالَ حنظلةُ عن نفسِهِ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ!

ومنهم أقوامٌ يميلُ بهم الطبعُ إلى الغفلةِ أحيانًا، ويدعوهم ما تقدَّمَ من المواعظِ إلى العملِ أحيانًا، فهم كالسُّنبلةِ تُميلُها الرِّياحُ.

---

(١) «صحيح مسلم» (٤/٢١٠٦).

وأقوامٌ لا يؤثِّرُ فيهم إلا بمقدارِ سماعِهِ، كماءٍ دحرجَتَهُ على صَفْوانٍ»[١].

وبعدُ: «فإنَّ مواعظَ القرآنِ أعظمُ المواعظِ على الإطلاقِ، وأوامرَهُ ونواهيَهُ محتويةٌ على الحكمِ والمصالحِ المقرونةِ بها، وهي من أسهلِ شيءٍ على النفوسِ، وأيسرِها على الأبدانِ، خاليةٌ من التكلُّفِ، لا تَناقُضَ فيها ولا اختلاف، ولا صعوبةَ فيها ولا اعتساف، تصلحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، وتليقُ لكلِّ أحدٍ»[٢].

وإنَّ برودَ العاطفةِ تجاهَ مواعظِ القرآنِ أمارةٌ على ضعفِ الخشيةِ، وقلَّةِ التأثُّرِ، واقرأْ ـ إنْ شئتَ ـ قولَهُ تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، فتأمَّلْ وصفَ اللهِ تعالى لقلوبِ أهلِ الإيمانِ عندَ سماعِ الوعدِ والوعيدِ؛ فهي تَقْشَعِرُّ خوفًا من الوعيدِ، ثم تلينُ وترجو عندَ الوعدِ.

ويزدادُ خوفُ المؤمنِ القارئِ للقرآنِ، حينما يقرأُ الآيةَ التي قبلَها، وهي قولُهُ تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]، فيضعُ يدَهُ على قلبِهِ خوفًا من أن يكونَ له نصيبٌ من هذه الآيةِ، والعياذُ باللهِ.

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٢٣).

(٢) من تفسير العلامة السعدي للآية رقم (٢١) من سورة الحشر، (ص١٠١٥).

وحينَ يقرأُ المؤمنُ قولَهُ تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٦، ١٠٧] = يتساءلُ: أين أنا من هذه الحالِ؟!

ولمَّا قرأَ الفاروقُ رضي الله عنه سورةَ مريمَ، وبلغَ قولَهُ تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] قالَ: «هذا السُّجودُ، فأينَ البكاءُ؟»(١).

إنَّه سؤالُ المحاسبِ والواعظِ نفسَهُ؛ فنحن أحوجُ لهذا إذا قرأنا كتابَ ربِّنا، ومرَّت بنا أمثالُ هذه الآياتِ المزلزلةِ القلوبَ.

ويقولُ ابنُ القيِّم رحمه الله: «لقد أسمعَ منادي الإيمانِ لو صادفَ آذانًا واعية، وشفَتْ مواعظُ القرآنِ لو وافقتْ قلوبًا من غيِّها خالية، ولكنْ عصفَتْ على القلوبِ أهويةُ الشُّبهاتِ والشَّهواتِ فأطفأَتْ مصابيحَها، وتمكَّنَتْ منها أيدي الغفلةِ والجهالةِ فأغلقتْ أبوابَ رُشدِها وأضاعتْ مفاتيحَها، ورانَ عليها كسبُها فلم ينفعْ فيها الكلام، وسَكِرَتْ بشهواتِ الغيِّ وشبهاتِ الباطلِ فلم تُصْغِ بعدَه إلى المَلام، ووُعِظَتْ بمواعظَ أنكى فيها من الأسنَّةِ والسِّهام، ولكن ماتَتْ في بحرِ الجهلِ والغفلةِ، وأسرِ الهوى والشهوةِ، وما لجرحٍ بميِّتٍ إيلام»(٢).

إنَّ من المحزنِ أن يهوِّنَ بعضُ الناسِ من شأنِ الوعظِ لأسبابِ

---

(١) «شعب الإيمان»، للبيهقي (٣/ ٤١٥).

(٢) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» (ص٥٥).

كثيرةٍ ـ ليسَ هذا محَلَّ ذكرِها ـ ولكن الذي أودُّ الإشارةَ إليه، أنَّ من أعظمِ المقاصدِ لتنزيلِ الكتابِ تدبُّرَهُ، والاتعاظَ به، والامتثالَ لما دلَّ عليه؛ ولذا قالَ ابنُ جريرٍ الطبريُّ رحمه الله في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢١ ـ ٢٣]: «يقولُ ـ تعالى ذِكرُهُ ـ للمؤمنين باللهِ ورسولِهِ من أصحابِ نبيِّ اللهِ ﷺ: لا تكونوا أيُّها المؤمنونَ، في مخالفةِ رسولِ اللهِ ﷺ كالمشركينَ الذينَ إذا سمعوا كتابَ اللهِ يُتلى عليهِم، قالوا: ﴿سَمِعْنَا﴾ بآذانِنا ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ يقولُ: وهم لا يعتبرونَ ما يسمعونَ بآذانِهم ولا ينتفعونَ بهِ؛ لإعراضِهِمْ عنهُ، وتركِهم أن يُوعُوه قلوبَهم ويتدبَّروهُ.

فجعلَهم اللهُ، إذ لم ينتفعُوا بمواعظِ القرآنِ ـ وإن كانوا قد سمعُوها بآذانِهم ـ بمنزلةِ من لم يسمَعْها.

يَقُول ـ جلَّ ثناؤُهُ ـ لأصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ: لا تكونوا أنتُم في الإعراضِ عن أمرِ رسولِ اللهِ، وتركِ الانتهاءِ إليه وأنتُم تسمعونَه بآذانِكم، كهؤلاءِ المشركينَ الذينَ يسمعونَ مواعظَ كتابِ اللهِ بآذانِهم، ويقولون: ﴿سَمِعْنَا﴾ وهُم عنْ الاستماعِ لها والاتِّعاظِ بها معرضونَ كمَنْ لا يسمَعُها...

ولو علمَ اللهُ في هؤلاءِ القائلينَ خيرًا، لأسمعَهم مواعظَ القرآنِ وعِبَرهُ، حتى يعقِلوا عن اللهِ عز وجل حُججَهُ منهُ، ولكنَّه قد علمَ أنَّه لا خيرَ فيهم، وأنَّهم ممَّنْ كُتِبَ لهم الشَّقاءُ فهم لا يؤمنونَ، ولو أفهمَهُم ذلكَ

حتى يعلمُوا ويفهمُوا، لتولَّوا عن اللهِ وعن رسولِهِ، وهم مُعرضونَ عنِ الإيمانِ بما دلَّهم على صحَّتِهِ مواعظُ اللهِ، وعِبَرُهُ وحُججُهُ، معاندونَ للحقِّ بعدَ العلمِ به»(١).

وقالَ رَحِمَهُ اللهُ في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]: «يقولُ تعالى ذكرُهُ: أفلا يتدبَّرُ هؤلاءِ المنافقونَ مواعظَ اللهِ التي يعظُهمْ بها في آيِ القرآنِ الذي أنزلَهُ على نبيِّهِ ﷺ ويتفكَّرونَ في حُججِهِ التي بيَّنَها لهُمْ في تنزيلِهِ؛ فيعلمُوا بها خطأَ ما هُم عليه مُقيمونَ؟! ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؛ يقولُ: أم أقفلَ اللهُ على قلوبِهم؛ فلا يعقلونَ ما أنزلَ اللهُ في كتابِهِ من المواعظِ والعِبَرِ؟!»(٢).

ثم ساقَ بسندِهِ عن قتادةَ في تفسيرِ هذه الآيةِ أنَّه قالَ: «إذن واللهِ يجدونَ في القرآنِ زاجرًا عن معصيةِ اللهِ، لو تدبَّرَهُ القومُ فعقَلوه، ولكنَّهم أخذوا بالمُتشابهِ فهلكوا عندَ ذلكَ»(٣).

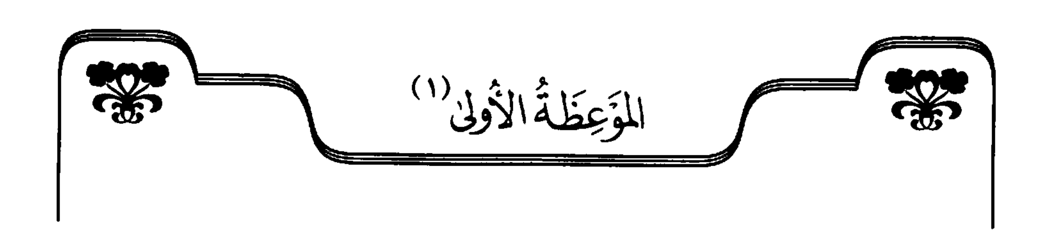
ومن جميلِ ما يُذكَرُ في تفسيرِ هذه الآيةِ أيضًا ما رواهُ ابنُ جريرٍ عن خالدِ بنِ مَعْدَانَ أنَّه قالَ: «ما من آدميٍّ إلا وله أربعُ أعينٍ: عينان في رأسِهِ لدُنياهُ، وما يصلحُهُ من مَعيشتِهِ، وعينانِ في قلبِهِ لدينِهِ، وما وعدَ اللهُ من الغيبِ، فإذا أرادَ اللهُ بعبدٍ خيرًا، أبصرَتْ عيناهُ اللَّتانِ في قلبِه، وإذا أرادَ اللهُ به غيرَ ذلك طَمسَ عليهما؛ فذلك قولُهُ: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾»(٤).

---

(١) «تفسير الطبري» (١١/٩٨ ـ ١٣٠) باختصار.
(٢) «تفسير الطبري» (٢١/٢١٥).
(٣) «تفسير الطبري» (٢١/٢١٦).
(٤) «تفسير الطبري» (٢١/٢١٦).

والمقصودُ مما سبقَ: التنبُّهُ إلى أهميَّةِ الوعظِ بالقرآنِ، والاتِّعاظِ بهِ، وخطورةِ الاقتصارِ على مجرَّدِ التلاوةِ من غيرِ عملٍ، فإنَّ ذلك قصورٌ وتقصيرٌ، ينبغي للمؤمنِ أن يترفَّعَ عنهُ، نذكِّرُ بهذا أنفسَنا، وإخوانَنا المسلمينَ، في كلِّ وقتٍ.





المَوعِظَةُ الأُولَى(١)

۞ «إلى العلماءِ العاملين... إلى السادةِ المربِّين... إلى أهلِ الفضلِ والصلاحِ... إلى دعاةِ الخيرِ والفلاحِ... إلى الشبابِ الباحثينَ عن وَارِدٍ من نورٍ، يخرجُهم من ظلماتِ هذا الزمانِ...! إلى جموعِ التائبينَ، الآيبين إلى منهجِ اللهِ وصراطِهِ المستقيمِ... إلى المُثقَلينَ بجراحِ الخطايا والذنوبِ مثلي! الراغبينَ في التطهُّرِ والتزكيةِ... والعودةِ إلى صَفِّ اللهِ، تحتَ رحمةِ اللهِ... إلى الذين تفرَّقَتْ بهم السُّبُلُ حَيرةً واضطرابًا، متردِّدين بينَ هذا الاجتهادِ وذاك، من مقولاتِ الإصلاحِ!

إليكم - أيُّها الأحبابُ - أبعثُ رسالةَ القرآنِ!

إليكم - سادَتي - أبعثُ قضيَّةَ القرآنِ، والسِّرُّ كلُّ السِّرِّ في القرآنِ! ولكن كيف السَّبيلُ إليهِ؟!

أليسَ بالقرآنِ وبحِكْمَةِ القرآنِ جعلَ اللهُ - تَقَدَّسَتْ أسماؤُهُ - عَبْدَهُ محمدَ بنَ عبدِ اللهِ النبيَّ الأميَّ - عليهِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ - مُعَلِّمَ البشريةِ وسيِّدَ ولدِ آدمَ؟! وما كانَ يقرأُ كتابًا من قبلُ ولا كانَ يخطُّهُ بيمينِهِ!

ثم أليسَ بالقرآنِ - وبالقرآنِ فقط - بَعَثَ اللهُ الحياةَ في عربِ

---

(١) من مقدمة الجزء الثاني من «مجالس القرآن» للشيخ د. فريد الأنصاري (١٤٣٠هـ)، رَحِمَهُ اللهُ.

الجاهليَّةِ؛ فنقلَهم من أُمَّةٍ أُمِّيةٍ ضالَّةٍ إلى أُمَّةٍ تُمارسُ الشَّهادةَ على الناسِ كلِّ الناسِ؟

ألم يكنِ القرآنُ في جيلِ القرآنِ مفتاحًا لعالمِ المُلْكِ والملكوتِ؟! ألم يكنْ هو الشفاءَ وهو الدواءَ؟! ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، ألم يكنْ هو الماءَ وهو الهواءَ؛ لكلِّ ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ على الحقيقةِ من الأحياءِ؟! ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

ألم تكنْ تلاوتُهُ - مجرَّدُ تلاوتِهِ من رجلٍ قرآنيٍّ بسيطٍ - تُحْدِثُ انقلابًا ربَّانيًا عجيبًا، وخَرقًا نُورانيًا غريبًا في أمرِ المُلْكِ والملكوتِ؟! ألم تتنزَّلِ الملائكةُ ليلًا مثلَ مصابيحِ الثُّريَّا لسماعِ القرآنِ من رجلٍ منهم، باتَ يَتَبَتَّلُ في سكونِ الدُّجَى، يناجي ربَّهُ بآياتٍ من بعضِ سُورِهِ؟! ألم يقرأْ رجلٌ آخَرُ سورةَ الفاتحةِ على لَدِيغٍ من بعضِ قبائلِ العربِ، اعتقلَهُ سمٌّ أفعى إلى الأرضِ، فلَبِثَ ينتظرُ حتفَهُ في بضعِ دقائقَ، حتى إذا قُرِئَتْ عليهِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ التي يحفظُها اليومَ كلُّ الأطفالِ، قامَ كأنْ لم يكنْ به شيءٌ قطُّ؟!

أليسَ هذا القرآنُ هو الذي صنعَ التاريخَ والجغرافيا للمسلمينَ؛ فكانَ هذا العالَمُ الإسلاميُّ المترامي الأطرافِ، وكانَ له هذا الرصيدُ الحضاريُّ العظيمُ، المُوغِلُ في الوجدانِ الإسلاميِّ؛ بما أعجزَ كلَّ أشكالِ الاستعمارِ القديمةِ والجديدةِ عن احتوائِهِ وهَضمِهِ؛ فلم تَنَلْ منه مَعاولُ الهدمِ وآلاتُ التدميرِ بشتَّى أنواعِها وأصنافِها المادِّيةِ والمعنويةِ، وبَقِيَ

- على الرغمِ من الجراحِ العميقةِ جدًّا - متماسكَ الوعيِ بذاتِهِ وهويتِهِ؟!

وما كانت الأمَّةُ الإسلاميةُ قبلَ نزولِ الآياتِ الأولى من (سورةِ العلقِ) شيئًا مذكورًا! وإنَّما كانَ هذا القرآنُ فكانَتْ هذهِ الأمَّةُ! وكانَتْ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

أليسَ القرآنُ الذي نتلُوه اليومَ هو عينَهُ القرآنَ الذي تلاهُ أولئكَ من قبلُ؟ فما الذي حدثَ لنا نحنُ أهلَ هذا الزمانِ إذن؟ ذلكَ هوَ السؤالُ! وتلكَ هيَ القضيةُ!

لا شكَّ أنَّ السرَّ كامِنٌ في منهجِ التعاملِ معَ القرآنِ! وذلكَ هوَ سؤالُ العصرِ! وقد كتبَ غيرُ واحدٍ من أهلِ العلمِ والفضلِ حولَ إشكالِ: كيف نتعاملُ معَ القرآنِ؟

ولقد أجمعَ السابقونَ واللاحقونَ على أنَّ المنهجَ إنَّما هوَ ما كانَ عليهِ محمَّدٌ ﷺ وأصحابُهُ من أمرِ القرآنِ، فمَن ذا اليومَ يستطيعُ الصبرَ عليهِ؟! وإنَّما هو تَلَقٍّ للقرآنِ آيةً آيةً، وتَلَقٍّ عنِ القرآنِ حِكْمَةً حِكْمَةً! على سبيلِ التخلُّقِ الوجدانيِّ، والتَّمَثُّلِ التربويِّ لحقائقِهِ الإيمانيَّةِ العُمُرَ كلَّهُ! حتَّى يصيرَ القرآنُ في قلبِ المؤمنِ نَفَسًا طبيعيًّا، لا يتصرَّفُ إلَّا من خلالِهِ، ولا ينطقُ إلَّا بحكمتِهِ! فإذا بتلاوتِهِ على نفسِهِ وعلى مَن حولَهُ غَيْرُ تلاوةِ الناسِ، وإذا بحركتِهِ في التاريخِ غيرُ حركةِ الناسِ!

وهكذا صنعَ الرسولُ ﷺ بما أُنْزِلَ عليهِ منَ القرآنِ آيةً آيةً - نمَاذِجَ حوَّلَتْ مَجْرَى التاريخِ! ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] فلم تكنْ لهُ وسائلُ ضخمةٌ ولا أجهزةٌ معقَّدَةٌ! وإنَّما هيَ شِعَابٌ بينَ الجبالِ، أو بيوتٌ بسيطةٌ، ثم مساجدُ آمنةٌ مطمئنَّةٌ! عُمْرانُهَا:

صلاةٌ ومجالسُ للقرآنِ! وبرامجُها: تلاوةٌ وتعلُّمٌ وتزكيةٌ بالقرآنِ! بدءًا بشِعابِ مكةَ، ودارِ الأرْقَمِ بنِ أبي الأرْقَمِ، وانتهاءً بمسجدِ المدينةِ المنوَّرةِ، عاصمةِ الإسلامِ الأولى، على صاحبِها أفضلُ الصلاةِ والسلام! كانتِ البساطةُ هي طابعَ كلِّ شيءٍ، وإنَّما العظمةُ كانتْ في القرآنِ، ولمَن تَشرَّبَ - بعدَ ذلكَ - رُوحَ القرآنِ!

هكذا كانَتْ مجالسُهُ ﷺ ثم مجالسُ أصحابِهِ في عهدِهِ، ومن بعدِهِ ﷺ؛ مجالسُ قرآنيَّةٌ، انعقدَتْ هنا وهناكَ، وتناسلَتْ بصورةٍ طبيعيَّةٍ؛ لإقامةِ الدِّينِ في النفسِ وفي المجتمعِ معًا على السَّواءِ، وبناءِ النسيجِ الاجتماعيِّ الإسلاميِّ من كلِّ الجوانبِ، بصورةٍ كليةٍ شُموليةٍ؛ بما كانَ من شموليةِ هذا القرآنِ، وإحاطتِهِ بكلِّ شيءٍ من عالمِ الإنسانِ! وذلك أمرٌ لا يحتاجُ إلى برهانٍ! واقرأ - إن شئتَ - الآيةَ المعجزةَ! ولكن بشرطٍ: اقرأ وتَدَبَّرْ! تَدَبَّرْهَا طويلًا! وقِفْ عليها مَلِيًّا! حتى بعدَ طَيِّ صفحاتِ هذه الورقاتِ!

فيأيُّها المؤمنُ السائرُ إلى مَولاه! الباحثُ بكلِّ شوقٍ عن نُورِهِ وهُداه! أبْصِرْ بقلبِكَ - إنْ كنتَ من المُبصرينَ - قولَهُ تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ولكَ أن تشاهدَ هذه المِنَّةَ العُظمى من خلالِ عَدِيلَتِها، وهي قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

نعم! هذه هي الآيةُ، وإنَّها لعَلَامَةٌ وأيُّ علامةٍ! فلا تَنْسَ الشرطَ!

تلكَ إذن كانَتْ رسالةَ القرآنِ، وتلكَ كانَتْ رسالةَ محمَّدٍ عليهِ الصلاةُ والسلامُ!

❁ فيا أتباع محمد ﷺ؛ يا شبابَ الإسلامِ! ويا كُهُولَهُ وشُيوخَهُ! يا رجالَهُ ونساءَهُ! ألم يَئِنِ الأوانُ بعدُ لتجديدِ رسالةِ القرآنِ؟! ألم يَئِنِ الأوانُ بعدُ لتجديدِ عهدِ القرآنِ؟!

وإنَّما قضيَّةُ الأمَّةِ كلُّ قضيَّتِها ههنا: تجديدُ رسالةِ القرآنِ! ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦][(١)].

❁ ❁ ❁

(١) «مجالس القرآن» (ص٩ ـ ١٣).



المَوْعِظَةُ الثَّانِيَةُ

❁ قالَ الشيخُ العلَّامةُ محمَّدُ بنُ صالحٍ العُثَيمِين (١٤٢١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، في مَعرِضِ ذكرِهِ الفوائدَ التي تُستفادُ من قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥، ٦٦]:

«ومنها؛ **أي: من فوائدِ هاتينِ الآيتينِ:**

أنَّ الذينَ ينتفعونَ بمثلِ هذهِ المواعِظِ هم المتَّقونَ.

ومنها: أنَّ المواعظَ قسمان:

كونيَّةٌ، وشرعيَّةٌ؛ **فالموعظةُ هنا كونيَّةٌ قدريَّةٌ**؛ لأنَّ اللهَ أحلَّ بهِمُ العقوبةَ التي تكونُ نَكالًا لما بينَ يدَيْها، وما خلفَها، وموعظةً للمتَّقينَ.

وأمَّا الشرعيَّةُ، فمثلُ قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

والمواعظُ الكونيَّةُ أشدُّ تأثيرًا لأصحابِ القلوبِ القاسيةِ، أمَّا المواعظُ الشرعيَّةُ فهي أعظمُ تأثيرًا في قلوبِ العارفين باللهِ الليِّنةِ قلوبُهم؛ لأنَّ انتفاعَ المؤمنِ بالشرائعِ أعظمُ من انتفاعِهِ بالمَقدوراتِ.

ومن فوائدِ الآيتين:

أنَّ الذينَ ينتفعونَ بالمواعظِ هم المتَّقونَ؛ وأمَّا غيرُ المتَّقي، فإنَّه

لا ينتفعُ بالمواعظِ الكونيَّةِ، ولا بالمواعظِ الشرعيَّةِ، قد ينتفعُ بالمواعظِ الكونيَّةِ اضطرارًا، وإكراهًا، وربَّما لا ينتفعُ؛ وقَدْ يقولُ: هذهِ الأشياءُ ظواهرُ كونيَّةٌ طبيعيَّةٌ عاديةٌ، كما قالَ تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]، وقد ينتفعُ، ويرجعُ إلى اللهِ تعالى، كما قالَ تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقالَ تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢].

ومِنْ فوائدِ الآيتينِ:

أنَّ من فوائدِ التقوى ـ وما أكثرَ فوائدَها ـ أنَّ المتقيَ يتَّعظُ بآياتِ اللهِ ﷻ الكونيَّةِ، والشرعيَّةِ»[1].



(١) «تفسير القرآن الكريم» (١/ ٢٣٢).



۞ قالَ الإمامُ العلَّامةُ أبو عبدِ اللهِ القُرْطُبيُّ (٦٧١هـ) رَحِمَهُ اللهُ، في مقدِّمةِ تفسيرِهِ:

«فما أحقَّ مَن عَلِمَ كتابَ اللهِ أن يَزدَجرَ بنَواهِيه، ويتذكَّرَ ما شُرِحَ لهُ فِيه، ويخشى اللهَ ويتَّقِيه، ويُراقِبَهُ ويَستَحييه، فإنَّهُ حُمِّلَ أعباءَ الرُّسُل، وصارَ شهيدًا في القيامةِ على مَن خالفَ مِن أهلِ المِلَل، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ألَا وإنَّ الحجَّةَ على مَن عَلِمَهُ فأغفلَهُ أوْكَدُ منها على من قصَّرَ عنه وجَهِلَهُ، ومَن أوتيَ علمَ القرآنِ فلم ينتفعْ، وزجرتْهُ نواهيه فلم يرتدعْ، وارتكبَ من المآثم قبيحا، ومن الجرائم فُضوحا، كانَ القرآنُ حجَّةً عليه، وخَصمًا لديه، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **(القُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ)** خرَّجَهُ مسلمٌ.

۞ فالواجبُ على مَن خصَّهُ اللهُ بحفظِ كتابِهِ، أن يتلوَهُ حقَّ تلاوتِه، ويتدبَّرَ حقائقَ عبارتِه، ويتفهَّمَ عجائبَه، ويتبيَّنَ غرائبَه؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وقالَ اللهُ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

جعلَنا اللهُ ممَّن يرعاهُ حقَّ رعايتِه، ويتدبَّرُهُ حقَّ تدبُّرِه، ويقومُ

بِقِسْطِه، ويَفِي بشَرطِه، ولا يلتمِسُ الهُدى في غيره، وهدانا لأعلامِهِ الظاهِرَهْ، وأحكامِهِ القاطعةِ الباهِرَهْ، وجمعَ لنا به خيرَ الدُّنيا والآخِرَهْ، فإنَّهُ أهلُ التقوى وأهلُ المغفرَهْ...».

ثم تحدَّثَ رَحِمَهُ اللهُ عمَّا يُعينُ على تدبُّرِهِ وفهمِهِ، فقالَ:

«فأوَّلُ ذلكَ أن يستشعرَ المؤمنُ من فضلِ القرآنِ أنَّه كلامُ ربِّ العالمينَ... فهو من نُورِ ذاتِهِ ـ جلَّ وعزَّ ـ ولولا أنَّه سبحانَهُ جعلَ في قلوبِ عبادِهِ من القوَّةِ على حملِهِ ما جعلَهُ ليتدبَّروه وليَعتَبِروا بهِ، وليتذكَّروا ما فيهِ من طاعتِهِ وعبادتِهِ، يقولُ ـ تعالى جَدُّهُ ـ وقولُهُ الحقُّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

فأينَ قوَّةُ القلوبِ من قوَّةِ الجبالِ؟! ولكن اللهَ تعالى رزقَ عبادَهُ من القوَّةِ على حملِهِ ما شاءَ أن يرزقَهُم، فضلًا منه ورحمةً!»[١].

❁ ❁ ❁

(١) «تفسير القرطبي» (١/٦ ـ ٩)، ط. الرسالة، بتصرُّف واختصار.



المَوعِظَةُ الرَّابِعَةُ

۞ **قالَ الشَّوْكانيُّ (١٢٥٠هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسيرِ قولِهِ تعالى:** ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]:

«وقولُهُ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ إلى آخرِ الآيةِ، فيهِ منَ التهديدِ العظيمِ، والزجرِ البليغِ ما تَقْشَعِرُّ لهُ الجُلودُ، وترجُفُ منهُ الأفئدةُ!

وإذا كانَ المَيلُ إلى أهواءِ المُخالِفينَ لهذه الشريعةِ الغَرَّاءِ، والمِلَّةِ الشريفةِ من رسولِ اللهِ ﷺ الذي هو سيِّدُ وَلَدِ آدمَ يوجبُ عليه أن يكونَ - وحاشاهُ - من الظالمينَ، فما ظَنُّكَ بغَيرِهِ من أُمَّتِهِ؟! وقد صانَ اللهُ هذه الفِرْقَةَ الإسلاميَّةَ بعدَ ثُبوتِ قَدَمِ الإسلامِ، وارتفاعِ مَنارِهِ عن أن يَميلُوا إلى شيءٍ من هوى أهلِ الكتابِ، ولم تبقَ إلَّا دسيسةٌ شيطانيَّة، ووسيلةٌ طاغوتيَّة، وهي مَيلُ بعضِ مَن تحمَّلَ حُجَجَ اللهِ إلى هوى بعضِ طوائفِ المبتدعةِ؛ لما يرجُوه من الحُطامِ العاجلِ من أيديهم، أو الجاهِ لديهِم إنْ كانَ لهُم في الناسِ دَوْلَة، أو كانوا من ذَوِي الصَّوْلَةِ، وهذا المَيلُ ليسَ من دونِ ذلك المَيلِ، بل اتِّباعُ أهواءِ المبتدعةِ يُشبهُ اتِّباعَ أهواءِ أهلِ الكتابِ، كما يُشبهُ الماءُ الماءَ، والبَيضةُ البَيضةَ، والتَّمرةُ التَّمرةَ، وقد تكونُ مفسدةُ اتِّباعِ أهواءِ المبتدعةِ أشدَّ على هذه المِلَّةِ من مفسدةِ اتِّباعِ أهواءِ أهلِ المللِ، فإنَّ المبتدعةَ ينتمونَ إلى الإسلامِ، ويُظهرون للناسِ

أنَّهم ينصرونَ الدِّينَ، ويتَّبعونَ أحسنَهُ، وهم على العكسِ من ذلكَ، والضدِّ لما هنالكَ، فلا يزالون ينقُلون مَن يميلُ إلى أهوائِهم من بدعةٍ إلى بدعة، ويدفعونه من شِنْعَةٍ إلى شِنْعَة، حتى يَسلَخُوه من الدِّينِ ويُخرجوهُ منهُ، وهو يظنُّ أنَّه منهُ في الصَّمِيم، وأنَّ الصِّراطَ الذي هوَ عليهِ هوَ الصِّراطُ المُستقِيم، هذا إن كان في عِدادِ المُقصِّرين، ومن جُملةِ الجاهلِين، وإن كانَ من أهلِ العلمِ والفهمِ المُمَيِّزينَ بينَ الحقِّ والباطلِ، كانَ في اتِّباعِهِ أهواءَهُم ممَّن أضلَّهُ اللهُ على علمٍ، وخَتَمَ على قلبِهِ، وصارَ نِقْمَةً على عبادِ اللهِ، ومُصيبةً صبَّها اللهُ على المقصِّرينَ؛ لأنَّهم يعتقدونَ أنَّهُ في علمِهِ وفهمِهِ لا يميلُ إلا إلى حقٍّ، ولا يتبعُ إلا الصَّوابَ؛ فيَضِلُّونَ بضلالِهِ، فيكونُ عليه إثمُهُ، وإثمُ مَنِ اقتدى بهِ إلى يومِ القيامةِ، نسألُ اللهَ اللُّطفَ والسَّلامةَ والهدايةَ!»[1].

❁ ❁ ❁

(١) «فتح القدير» (١/ ١٥٤).

الموعظة الخامسة

❁ قالَ العلَّامةُ الطاهرُ بنُ عاشورٍ (١٣٩٣هـ) رَحِمَهُ اللهُ، في تفسير قولِ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]:

«وحكمةُ تحريمِ الرِّبا هي قصدُ الشَّريعةِ حملَ الأمَّةِ على مُواساةِ غَنيِّها مُحتاجَها احْتِياجًا عارضًا مؤقَّتًا بالقَرْضِ؛ فهوَ مرتبةٌ دونَ الصَّدَقةِ، وهو ضَرْبٌ من المُواساةِ، إلَّا أنَّ المُواساةَ منها فرضٌ كالزكاةِ، ومنها نَدْبٌ كالصَّدقةِ والسَّلَفِ، فإن انتُدبَ لها المكلَّفُ، حُرِّمَ عليهِ طلبُ عِوَضٍ عنها، وكذلك المعروفُ كلُّهُ؛ وذلك أنَّ العادةَ الماضيةَ في الأُمم، وخاصَّةً العربَ، أنَّ المرءَ لا يتداينُ إلَّا لضرورةِ حياتِهِ؛ فلذلكَ كانَ حقُّ الأُمَّةِ مُواساتَهُ، والمُواساةُ يظهرُ أنَّها فرضُ كفايةٍ على القادرينَ عليها، فهو غيرُ الَّذي جاءَ يريدُ المعاملةَ للرِّبحِ كالمُتبايِعَيْنِ والمُتقارِضَين؛ للفرقِ الواضحِ في العُرفِ بينَ التعامُلِ وبينَ التدايُنِ، إلا أنَّ الشَّرعَ ميَّزَ هاتِهِ المَواهيَ[1] بعضَها عن بعضٍ بحقائقِها الذاتيَّةِ، لا باختلافِ أحوالِ المُتعاقِدَينِ؛ فلذلكَ لم يسمَحْ لصاحبِ المالِ في استثمارِهِ بطريقةِ الرِّبا في السَّلَفِ، ولو كان المُستَسْلِفُ غيرَ محتاجٍ، بل كانَ طالبَ سَعَةٍ وإثراءٍ بتحريكِ المالِ الَّذي يتسلَّفُهُ في وجوهِ الرِّبحِ والتِّجارةِ ونحوِ ذلكَ، وسَمَحَ

(١) (هاته) اسم إشارة؛ هذه. و(المواهي): جمع ماهية.

لصاحبِ المالِ في استثمارِهِ بطريقةِ الشَّرِكَةِ والتِّجارةِ ودَيْنِ السَّلَم، ولو كانَ الرِّبحُ في ذلكَ أكثرَ من مقدارِ الرِّبا؛ تَفْرِقَةً بينَ المناهي الشَّرعيَّةِ.

ويمكنُ أن يكونَ مقصدُ الشريعةِ من تحريمِ الرِّبا البُعدَ بالمسلمينَ عن الكسلِ في استثمارِ المالِ، وإلجاءَهم إلى التشارُكِ والتعاونِ في شؤونِ الدُّنيا؛ فيكونُ تحريمُ الرِّبا، ولو كانَ قليلًا، معَ تجويزِ الرِّبحِ من التِّجارةِ والشَّركاتِ، ولو كانَ كثيرًا ـ تحقيقًا لهذا المقصدِ.

ولقد قضى المسلمون قرونًا طويلةً لم يرَوا أنفسَهم فيها محتاجينَ إلى التعاملِ بالرِّبا، ولم تكُنْ ثروتُهم أيَّامَئِذٍ قاصرةً عن ثروةِ بقيَّةِ الأُممِ في العالمِ، أزمانَ كانت سيادةُ العالمِ بِيَدِهِمْ، أو أزمانَ كانوا مستقلِّينَ بإدارةِ شؤونِهم، فلمَّا صارَتْ سيادةُ العالمِ بيَدِ أُممٍ غيرِ إسلاميَّةٍ، وارتبطَ المسلمون بغيرِهِمْ في التِّجارةِ والمُعاملةِ، وانتظَمَتْ سوقُ الثَّروةِ العالميَّةُ على قواعدِ القوانينِ الَّتي لا تَتَحاشى المُراباةَ في المعاملاتِ، ولا تعْرِفُ أساليبَ مُواساةِ المسلمينَ؛ دَهِشَ المسلمون، وهم اليومَ يتساءلُون، وتحريمُ الرِّبا في الآيةِ صَريح، وليسَ لمَا حرَّمَهُ اللهُ مُبيح، ولا مَخلَصَ من هذا المَضِيقِ إلَّا أنْ تجعلَ الدُّولُ الإسلاميةُ قوانينَ ماليةً تُبنى على أصولِ الشريعةِ في المصارفِ، والبُيوعِ، وعقودِ المعاملاتِ المركَّبةِ من رؤوسِ الأموالِ وعملِ العمَّالِ، وحِوالاتِ الدُّيونِ ومُقاصَّتِها وبيعِها، وهذا يقضي بإعمالِ أنظارِ علماءِ الشريعةِ والتدارسِ بينَهم في مَجمَعٍ يحوي طائفةً من كلِّ فرقةٍ؛ كما أمرَ اللهُ تعالى»[١].

❁ ❁ ❁

(١) «التحرير والتنوير» (٣/ ٢١٨).



الموعظة السادسة

۞ **قالَ العلَّامةُ الشنقيطيُّ (١٣٩٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسيرِ قولِهِ تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]:

«اعلمْ أنَّ كلًّا من الآمرِ والمأمورِ يجبُ عليهِ اتِّباعُ الحقِّ المأمورِ به، وقد دلَّتِ السُّنَّةُ الصحيحةُ على أنَّ مَن يأمرُ بالمعروفِ ولا يفعلُهُ وينهى عن المنكرِ ويفعلُهُ أنَّه حمارٌ من حُمُرِ جهنَّمَ يجرُّ أمعاءَهُ فيها.

وقد دلَّ القرآنُ العظيمُ على أنَّ المأمورَ المُعْرِضَ عن التذكرةِ حمارٌ أيضًا.

أما السُّنَّةُ المذكورةُ، فقولُهُ ﷺ: (**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ، فَيَدُورُ بِهَا فِي النَّارِ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهْلُ النَّارِ فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا أَصَابَكَ؟! أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُنَا بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ المُنْكَرِ؟! فَيَقُولُ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَآتِيهِ**) أخرجَهُ الشيخانِ في صحيحيهما من حديثِ أسامةَ بنِ زيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ ومعنى (**تندلقُ أقتابُهُ**): تتدلَّى أمعاؤُهُ، أعاذَنا اللهُ والمسلمينَ من كلِّ سوءٍ.

وعن أنسٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: (**رأيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، كُلَّمَا قُرِضَتْ رَجَعَتْ، فَقُلْتُ لِجِبْرِيلَ:**

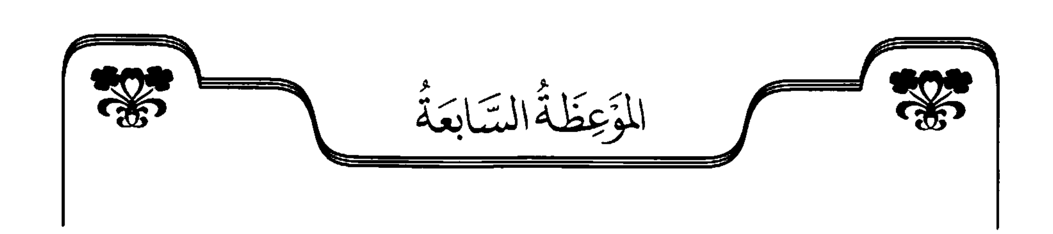
مَنْ هَؤُلَاءِ؟! قَالَ: هَؤُلَاءِ خُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ، وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟) أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ، وغيرُهُ.

واعلَمْ أنَّ التحقيقَ أنَّ هذا الوعيدَ الشديدَ الذي ذكرنا؛ من انْدلاقِ الأمعاءِ في النارِ، وقَرْضِ الشِّفاهِ بمقاريضِ النارِ - ليسَ على الأمرِ بالمعروفِ، وإنَّما هو على ارتكابِهِ المنكرَ عالمًا بذلكَ، ينصحُ الناسَ عنهُ، فالحقُّ أنَّ الأمرَ بالمعروفِ غيرُ ساقطٍ عن صالحٍ، ولا طالحٍ، والوعيدُ على المعصيةِ، لا على الأمرِ بالمعروفِ؛ لأنَّه في حدِّ ذاتِهِ ليسَ فيه إلَّا الخيرُ...

وأما الآيةُ الدالةُ على أنَّ المُعرِضَ عن التذكيرِ كالحمارِ أيضًا، فهيَ قولُهُ تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١]؛ والعبرةُ بعمومِ الألفاظِ لا بخصوصِ الأسبابِ، فيجبُ على المذكِّرِ (بالكسرِ) والمذكَّرِ (بالفتحِ) أنْ يعمَلا بمقتضى التذكرةِ، وأنْ يتحفَّظا من عدمِ المُبالاةِ بها؛ لئلَّا يكونا حِمارَينِ منْ حُمُرِ جهنَّمَ»[1].

❁ ❁ ❁

(١) «أضواء البيان» (٢/٢٠٣ - ٢٠٥).



المَوعِظَةُ السَّابعَةُ

۞ **قالَ العلَّامةُ الشنقيطيُّ (١٣٩٣هـ) رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في تفسيرِ قولِهِ تعالى:** ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]:

«ومفاتحُ الغيبِ المذكورةُ في هذه الآيةِ هي المذكورةُ في أُخْرَيَاتِ سورةِ لقمانَ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤]، وتفسيرُ النبيِّ ﷺ لمفاتحِ الغيبِ هنا بأنَّها الخمسُ المذكورةُ في قولِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى آخِرِهَا، ثَبَتَ في الصحيحِ عنْ جماعةٍ من الصحابةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ.

هذه هي مفاتحُ الغيبِ:

١ ـ فالوقتُ الذي تقومُ فيهِ الساعةُ لا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ وحدَهُ ـ جلَّ وعلا ـ لا يعلمُهُ أحدٌ؛ ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

٢ ـ ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾؛ الوقتُ الذي يَنْزِلُ فيه المطرُ لَا يعلمُهُ إلَّا اللهُ وحدَهُ.

٣ ـ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ﴾ الذي هو في رَحِمِ أُمِّهِ لا يَعْلَمُ حقيقتَهُ إلا اللهُ، أَذَكَرٌ هوَ أمْ أُنْثَى؟ قبيحٌ أو جميلٌ؟ شَقِيٌّ أو سَعِيدٌ؟ لا يَدْرِي الإنسانُ ماذا يَكْسِبُ غَدًا.

٤ ـ **والمرادُ بـ(ما يَكْسِبُ غَدًا)**: من خيرٍ أو شَرٍّ، ما يكسبُ مِنَ الحسناتِ التي تُقَرِّبُهُ للهِ، وما يَكسِبُ من السيِّئاتِ التي تُبعِدُهُ عن اللهِ ـ جلَّ وعلا ـ **ويدخلُ في ذلك**: ما يَكسِبُهُ من مالٍ ونحوِه؛ لأَنَّ اللهَ قد يُغْنِيهِ من حيثُ لا يشعرُ، وقد يُفْقِرُهُ من حيثُ لا يَشْعُرُ؛ لأنَّ اللهَ بيدِهِ كُلُّ شَيْءٍ.

٥ ـ ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ لا يعرفُ الإنسانُ المحلَّ الذي فيه قَبْرُهُ، وإن كانَ سَاكِنًا في محَلٍّ، وإذا كتبَ اللهُ أجلَهُ في مَحَلٍّ لَا بُدَّ أن تكونَ له حاجةٌ إلى ذلك المحلِّ فيذهبَ إليه؛ لِيُدرِكَهُ أَجَلُهُ فيه، وينفُذَ قضاءُ اللهِ كما سَبَقَ في عِلمِهِ الأَزَليِّ.

هذه مفاتحُ الغيبِ الخمسُ التي بَيَّنَ النبيُّ أنَّها معنَى هذه الآيةِ، وخَيرُ التَّفسِيرِ تَفسِيرُهُ ﷺ.

وَاللهُ ـ جلَّ وعلا ـ يُطلِعُ رُسُلَهُ على ما شَاءَ من غَيبِهِ، ويُطلِعُ ملائكتَهُ على ما شاءَ من غَيبِهِ، كما بَيَّنَهُ في آياتٍ من كتابِه: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، وكقولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]؛ أي: فَيُطلِعُ مَنِ اجْتَبَى من رُسُلِهِ على ما شاءَ من غَيبِهِ، وقد أَطلَعَ نَبِيَّنَا ﷺ على أمورٍ كثيرةٍ، أَخبَرَ بكثيرٍ منها، منه ما حَفِظَهُ الناسُ حتى وَقَعَ، ومنه ما نَسُوهُ.

وهذه الآيةُ الكريمةُ وأمثالُها في القرآنِ العظيمِ أجمعَ العلماءُ على أنَّها أكبرُ واعظٍ وأعظمُ زاجرٍ نَزَلَ من السماءِ إلى الأرضِ، فهي أعظمُ موعظةٍ تُلْقَى يتَّعظُ بها الناسُ، إلَّا أنَّهُ معَ الأسفِ تَمُرُّ على آذانِهم ولم

تَكُنْ في قلوبِهم!! وهذا أكبرُ وَاعِظٍ؛ لأنه أَطْبَقَ العلماءُ على أنَّ أعظمَ المواعِظِ، وأعظمَ الزواجِرِ، هو واعظُ المراقبةِ والعلمِ.

وَضَرَبَ العلماءُ لهذا مثلًا، فقالوا ـ وللهِ المثلُ الأَعْلَى ـ: لو فَرَضْنَا أنَّ هذا البَراحَ من الأرضِ، فيه مَلِكٌ قَتَّالٌ للرِّجالِ إنِ انتُهِكَتْ حُرُماتُهُ، سفَّاكٌ للدِّماءِ إنِ انتُهكتْ حُرُماتُهُ، ذو قوَّةٍ وعزَّةٍ ومَنَعَةٍ، وحولَهُ جيوشُهُ، وحولَ هذا الملكِ بناتُهُ ونساؤُهُ وجَوارِيهِ، أَيَخْطُرُ في بالِ أحدٍ أنَّ أولئك الحاضرين مجلسَ هذا الملكِ الجبَّارِ يقومُ واحدٌ منهم بغَمْزَةِ عَيْنٍ إلى حَرَمِ ذلك الملكِ أَوْ رِيبَةٍ؟! لَا، وَكَلَّا! كُلُّهُمْ خاضعونَ خاشعةٌ عيونُهمْ، خاشعةٌ جوارِحُهمْ، غايةُ أمانيهِمُ السلامةُ!! ولا شَكَّ أنَّ خالقَ الكونِ ـ وله المثلُ الأَعْلَى ـ أعظمُ بَطْشًا، وأشدُّ نَكَالًا إنِ انْتُهِكَتْ حُرُماتُه، وحِماهُ في أرضِهِ مَحارِمُهُ.

ولو قِيلَ لأهلِ بلدٍ: إنَّ أميرَ ذلك البلدِ يَبِيتُ عَالِمًا بِكُلِّ ما يفعلونَه في الليلِ من الخسائسِ والدَّسائسِ، لَباتُوا مُتأدِّبِينَ، لا يفعلونَ إلَّا شيئًا طَيِّبًا!! وهذا خالقُ السمواتِ والأرضِ، المَلِكُ الجبَّارُ، يُخبِرُهُمْ في آياتِ كتابِهِ، لا تكادُ تَقلِبُ ورقةً واحدةً من أوراقِ المصحفِ الكريمِ، إلا وجدتَّ فيها هذا الواعظَ الأكبرَ والزاجرَ الأعظمَ؛ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ الآياتِ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

۞ **فَيَنبَغِي علينَا جميعًا أن نعتبرَ بهذا الزاجرِ الأكبرِ، والواعظِ الأعظَمِ، وألَّا نَتَناساهُ؛ لئلَّا نُهلِكَ أنفسَنا**، ونعتقدَ أنَّا لو كُنَّا في حضرةِ مَلِكٍ جَبَّارٍ من ملوكِ الدُّنيا يموتُ ويأكلُهُ الدُّودُ، أنَّا بحضرتِهِ ومُلاقاتِهِ لا يُمكِنُنَا أن نفعلَ إلَّا شيئًا يَسُرُّهُ وَيُرضِيهِ، فعلينا أن نعلمَ أنَّنا بينَ يَدَيْ مَلِكِ السمواتِ والأرضِ ـ جلَّ وعلا ـ وأنه أعظمُ بطشًا وأفظعُ نكالًا إنِ انتُهِكَتْ حُرُماتُهُ، وأنَّه عَالِمٌ بِكُلِّ ما نُسِرُّ وما نُعلِنُ.

وجاءَ جبريلُ يُبَيِّنُ هذا المغزَى الأكبرَ والمقصدَ الأعظمَ لأصحابِ النبيِّ ﷺ؛ حيثُ قالَ للنبيِّ ﷺ: «يَا مُحَمَّدُ (صَلَواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ)، أَخْبِرْنِي عنِ الإحسانِ (المعنَى الذِي خُلِقَ الخلقُ لأجلِ الاختبارِ فيهِ)، فَبَيَّنَ النبيُّ ﷺ أنَّه لا طريقَ إلى الإحسانِ الذي خُلِقْنَا منْ أجلِه، إلَّا باعتبارِ هذا الزاجرِ الأكبرِ والواعظِ الأعظمِ، وهو مراقبةُ خالقِ السَّمواتِ والأرضِ، والعلمُ بأنَّه رَقِيبٌ، عِلْمُهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ؛ ولذا قال له: (**الإِحْسَانُ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**).

ولَا شَكَّ أنَّ مَنْ عَبَدَ اللهَ كأنَّه يَرَى اللهَ، وإذا تَنَزَّلَ فقالَ: لا أَرَى اللهَ، فهو عَالِمٌ أنَّ اللهَ يَرَاهُ، مُطَّلِعٌ عليه، مَن كانَ يعملُ أمامَ الملكِ الجبَّارِ، وهو مطَّلعٌ عليه، ناظرٌ إليه، لا يمكنُ أن يُسِيءَ العملَ، فلا بُدَّ أن يحسنَ العملَ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]، في هذه الآياتِ القرآنيَّةِ زاجرٌ أعظمُ، وواعظٌ أكبرُ»[(١)].

۞ ۞ ۞

(١) باختصار من: «العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير» (١/ ٣٨٣ ـ ٣٩٢).



الموعظة الثامنة

علّقَ الشيخُ محمدُ رشيدٍ رضا (١٣٥٤هـ) رحمه الله، على قولِهِ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٢، ٤٣] **فقالَ:**

«**المعنى:** أنَّهم يُصِيخُونَ بأسماعِهم مُصغِينَ إليكَ إذا قرأْتَ القرآنَ، أو بيَّنتَ ما فيهِ من أصولِ الإيمانِ والأحكامِ، ولكنَّهمْ لا يسمعونَ إذْ يستمعونَ؛ إذ لا يتدبَّرونَ القولَ ولا يعقلونَ ما يُرادُ بهِ، ولا يفقهونَ ما يَرمي إليهِ؛ لأنَّ الاستماعَ إليكَ مقصودٌ عندَهُمْ لذاتِهِ لا لما يُرادُ بهِ، وهيَ بلاغتُهُ في غرابةِ نظمِهِ، وجَرْسِ الصَّوتِ بترتيلِهِ، كمَن يستمعُ إلى طائرٍ يغرِّدُ على فَنَنِهِ؛ ليستمتعَ بصوتِهِ لا ليفهمَ منهُ، كما قالَ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢، ٣]، أوْ كالبهائمِ يَصِيحُ بها الراعي؛ فترفعُ رؤوسَها لاستماعِ صوتِهِ الذي راعَها فصرفَها عن رَعْيِها، كما قالَ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، أو كما قالَ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

والقاعدةُ الطبيعيَّةُ الشرعيَّةُ أنَّ الأمورَ بمقاصدِها؛ ونحنُ نرى كثيرًا

من الناسِ يقصدونَ قرَّاءَ القرآنِ في ليالي رمضانَ أو في المآتمِ، ليستمعوا إلى فلانٍ القارئِ الحسنِ الصوتِ لغرضِ التلذُّذِ بترتيلِهِ وتوقيعِ صوتِهِ أو بلاغتِهِ، ولا أحدَ منهم ينتفعُ بشيءٍ من مواعظِ القرآنِ ونُذُرِه، وحِكَمِهِ وعِبَرِه، ولا عقائدِهِ وأحكامِهِ، ومنهمُ المسلمونَ وغيرُ المسلمينَ، بل سمعتُ بأذُني من غيرِ المسلمينَ مَن يستمعُ القرآنَ، ويعجبُ من شدَّةِ تأثيرِهِ وتَغلغُلِهِ في أعماقِ القلبِ، وهو لا يؤمنُ به؛ ولهذا قالَ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢]؛ هذا الاستفهامُ للإنكارِ؛ يعني: أنَّ السماعَ النافعَ للمستمعِ هو ما عقلَ بهِ ما يسمعُهُ وفقهَهُ وعملَ بمقتضاهُ، فمَن فقدَ هذا كانَ كالأصمِّ الذي لا يسمعُ، وأنتَ - أيُّها الرسولُ - لم تُؤتَ القدرةَ على إسماعِ الصُّمِّ؛ أي: فاقِدِي حاسَّةِ السمعِ حقيقةً؛ فكذلكَ لا تستطيعُ الإسماعَ النافعَ للصُّمِّ مجازًا؛ وهمُ الذينَ لا يعقلونَ ما يسمعونَ ولا يفقهونَ معناهُ فيهتدوا بهِ.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٣]؛ أي: يوجِّهُ أشعَّةَ بصرِهِ إليكَ عندما تقرأُ القرآنَ، ولكنَّه لا يبصرُ ما آتاكَ اللهُ من نورِ الإيمانِ، وهيبةِ الخشوعِ للديَّانِ، وكمالِ الخَلْقِ والخُلُقِ، وأماراتِ الهُدى والحقِّ، وآياتِ التزامِ الصِّدقِ، التي عبَّرَ عنها أحدُ أولي البصيرةِ بقَولِهِ؛ عندما رأى النبيَّ ﷺ: واللهِ ما هذا بوجهِ كذَّابٍ!

وقالَ حكيمٌ إفرنجيٌّ: كانَ محمَّدٌ يقرأُ القرآنَ في حالةٍ ولهُ تأثُّرٌ وتأثيرٌ، فيجذبُ بهِ إلى الإيمانِ أضعافَ من جذبَتْهُمْ آياتُ موسى وعيسى عليهما السلام.

ومن فَقَدَ البصيرةَ العقليَّةَ والقلبيةَ فيما يراهُ ببصرِهِ، فجمعَ بينَ وجودِ النظرِ الحسيِّ بالعينَينِ، وعدمِ النظرِ المعنويِّ بالعقلِ - فهو محرومٌ منْ

هدايةِ البصرِ، وهي البصيرةُ التي يمتازُ بها الإنسانُ عن بصرِ الحيوانِ، فكأنَّهُ أعمى العينينِ؛ ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: ٤٣]؛ أي: أنَّك ـ أيُّها الرسولُ ـ لست بقادرٍ على هدايةِ العُمْيِ بدلائلِ البصرِ الحسِّيةِ، فكذلك لا تقدرُ على هدايتِهم بدلائلِهِ العقليَّةِ، ولو كانوا فاقدين لنعمةِ البصيرةِ التي تدركُها، وقد أسندَ فعلَ الاستماعِ إلى الجميعِ؛ لكثرةِ تفاوتِ المستمعينَ واختلافِ أحوالِهم فيهِ، وأسندَ فعلَ النظرِ إلى المفردِ؛ لأنَّه جنسٌ واحدٌ، ولكنَّه أفردَ السمعَ، وجمعَ الأبصارَ في بضعِ آياتٍ، منها هذه السورةُ؛ لما ذكرناهُ في تفسيرِها.

والمرادُ من الآيتين: أنَّ هدايةَ الدِّينِ كهدايةِ الحسِّ، ولا تكونُ إلَّا للمستعدِّ لها بهدايةِ العقلِ، وأنَّ هدايةَ العقلِ لا تحصُلُ إلَّا بتوجُّهِ النفسِ وصحَّةِ القصدِ.

وهذا الصنفُ من الكفَّار قد انصرفَتْ أنفسُهمْ عن استعمالِ عقولِهِمْ في الدلائلِ البصريَّةِ والسمعيَّةِ لإدراكِ مطلبٍ من المطالبِ ممَّا وراءَ شهواتِهمْ وتقاليدِهمْ، وليسَ المرادُ أنَّهم فَقَدوا نعمةَ العقلِ الغريزيِّ ولا نعمةَ الحواسِّ، بل استعمالَها النافعَ، كما قالَ في سورةِ الأعرافِ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فراجعْ تفسيرَها للاعتبارِ والاتِّعاظِ»[1].

❁ ❁ ❁

---

(١) «تفسير المنار» (١١/٣١٣ ـ ٣١٥) باختصار.



الموعظة التاسعة

قالَ العلَّامةُ الشنقيطيُّ (١٣٩٣هـ) رَحِمَهُ اللهُ، في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [هود: ٦، ٧]:

«اعلَمْ أنَّ اللهَ ـ تباركَ وتعالى ـ ما أنزلَ منَ السماءِ إلى الأرضِ واعظًا أكبرَ، ولا زاجرًا أعظمَ ممَّا تضمَّنَتْهُ هذه الآياتُ الكريمةُ وأمثالُها في القرآنِ، من أنَّه تعالى عالمٌ بكلِّ ما يعملُهُ خلقُهُ، رقيبٌ عليهِمْ، ليسَ بغائبٍ عمَّا يفعلونَ.

وضربَ العلماءُ لهذا الواعظِ الأكبرِ، والزاجرِ الأعظمِ مثلًا؛ ليصيرَ به كالمَحسوسِ، فقالوا: لو فرضْنا أنَّ ملكًا قتَّالًا للرِّجالِ، سفَّاكًا للدِّماءِ شديدَ البطشِ والنَّكالِ على مَن انتهكَ حرمتَهُ ظلمًا، وسيَّافُهُ قائمٌ على رأسِهِ، والنِّطعُ مبسوطٌ للقتلِ، والسَّيفُ يقطُرُ دمًا، وحولَ هذا الملكِ الذي هذه صفتُهُ جواريهِ وأزواجُهُ وبناتُهُ، فهل ترى أنَّ أحدًا من الحاضرين يهتمُّ بريبةٍ أو بحرامٍ ينالُهُ من بناتِ ذلك الملكِ وأزواجِهِ، وهو ينظرُ إليه، عالمٌ بأنَّه مطَّلعٌ عليه؟! لا، وكلَّا! بل جميعُ الحاضرينَ يكونونَ خائفينَ، وَجِلَةٌ قلوبُهم، خاشعةٌ عيونُهُمْ، ساكنةٌ جوارحُهُمْ؛ خوفًا من بطشِ ذلك الملكِ.

ولا شكَّ ـ وللهِ المثلُ الأعلى ـ أنَّ ربَّ السمواتِ والأرضِ ـ جلَّ وعلا ـ أشدُّ علمًا، وأعظمُ مراقبةً، وأشدُّ بطشًا، وأعظمُ نكالًا وعقوبةً من ذلك الملكِ، وحِماهُ في أرضِهِ محارمُهُ، فإذا لاحظَ الإنسانُ الضعيفُ أنَّ ربَّهُ ـ جلَّ وعلا ـ ليسَ بغائبٍ عنهُ، وأنَّه مطَّلعٌ على كلِّ ما يقولُ وما يفعلُ وما ينوي لانَ قلبُهُ، وخشيَ اللهَ تعالى، وأحسنَ عملَهُ للهِ جلَّ وعلا.

ومن **أسرارِ هذه الموعظةِ الكبرى**: أنَّ اللهَ ـ تباركَ وتعالى ـ صرَّحَ بأنَّ الحكمةَ التي خُلِقَ الخلقُ من أجلِها، هي: أن يبتليَهُمْ أيُّهم أحسنُ عملًا، ولم يقُلْ: أيُّهم أكثرُ عملًا، فالابتلاءُ في إحسانِ العمَلِ، كما قالَ تعالى في هذه السورةِ الكريمةِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الآيةَ [هود: ٧].

وقالَ في الملكِ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

ولا شكَّ أنَّ العاقلَ إذا علمَ أنَّ الحكمةَ التي خُلِقَ من أجلِها هي أن يُبتلى؛ أي: يُختبَرَ بإحسانِ العملِ، فإنَّه يهتمُّ كلَّ الاهتمامِ بالطريقِ الموصلةِ لنجاحِهِ في هذا الاختبارِ، ولهذه الحكمةِ الكبرى سألَ جبريلُ النَّبيَّ ﷺ عن هذا، ليعلِّمَهُ لأصحابِ النَّبيِّ ﷺ فقالَ: (**أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ**)؛ أي: وهو الذي خُلِقَ لأجلِ الاختبارِ فيه، فبيَّنَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ الطريقَ إلى ذلكَ هي هذا الواعظُ، والزاجرُ الأكبرُ الذي هو مراقبةُ اللهِ تعالى، والعلمُ بأنَّه لا يخفى عليهِ شيءٌ ممَّا يفعلُ خلقُهُ، فقالَ له: (**الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**)». انتهى كلامُهُ[١].

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٩).



❁ قالَ الزمخشريُّ (٥٣٨هـ) رَحِمَهُ اللهُ، في تفسيرِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم ٤٩ ـ ٥١]:

«القَطِرَانُ: هو ما يتحلَّبُ من شجرٍ يُسمَّى الأبهلَ فيُطْبَخُ، فتهنأُ به الإبلُ الجَرْبَى؛ فيحرقُ الجَرَبَ بحَرِّهِ وحِدَّتِهِ، والجِلْدَ، وقد تبلغُ حرارتُهُ الجَوْفَ، ومن شأنِهِ أن يُسرِّعَ في اشتعالِ النارِ، وقد يُستَسْرَجُ بهِ، وهوَ أسودُ اللونِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فتُطلى به جلودُ أهلِ النارِ، حتى يعودَ طلاؤُهُ لهم كالسَّرابيلِ، وهي القُمُصُ؛ لتجتمعَ عليهِمُ الأربعُ: لَذْعُ القَطِرانِ وحُرْقَتُهُ، وإسراعُ النارِ في جلودِهم، واللَّونُ الوَحِشُ، ونَتْنُ الرِّيحِ.

على أنَّ التفاوتَ بينَ القَطْرانَين كالتفاوتِ بينَ النارَين، وكلُّ ما وعدَهُ اللهُ أو وعدَ بهِ في الآخرةِ، فبَيْنَهُ وبينَ ما نُشاهدُ من جنسِهِ ما لا يُقادَرُ قدرُهُ، وكأنَّ ما عندَنا منه إلَّا الأسامي والمسمَّياتُ، فبِكَرمِهِ الواسعِ نعوذُ من سخطِهِ، ونسألُهُ التوفيقَ فيما يُنجِينا من عذابِهِ»[(١)].

❁ ❁ ❁

(١) «الكشاف» (٢/٥٦٧).



۞ **قالَ العلَّامةُ الشنقيطيُّ (١٣٩٣هـ) رَحِمَهُ اللهُ، في تفسيرِ قولِهِ تعالى:** ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]:

«ومن هَدْيِ القرآنِ للتي هي أقومُ هديُهُ إلى حلِّ المشكلاتِ العالميَّةِ بأقوَمِ الطُّرقِ وأعدلِها، ونحنُ دائمًا في المناسباتِ نبيِّنُ هديَ القرآنِ العظيمِ إلى حلِّ ثلاثِ مشكلاتٍ، هي من أعظمِ ما يُعانيهِ العالمُ في جميعِ المعمورةِ ممَّن ينتمي إلى الإسلامِ؛ تنبيهًا بها على غيرِها:

المشكلةُ الأولى: هي ضعفُ المسلمين في أقطارِ الدُّنيا في العددِ والعُدَّةِ عن مقاومةِ الكفَّارِ، وقد هدى القرآنُ العظيمُ إلى حلِّ هذه المشكلةِ بأقومِ الطرقِ وأعدلِها؛ فبيَّنَ أنَّ علاجَ الضعفِ عن مقاومةِ الكفَّار إنَّما هو بصدقِ التوجُّهِ إلى اللهِ تعالى، وقوةِ الإيمانِ به والتوكُّلِ عليهِ؛ لأنَّ اللهَ قويٌّ، عزيزٌ، قاهرٌ لكلِّ شيءٍ؛ فمن كانَ مِنْ حِزْبِهِ على الحقيقةِ لا يمكنُ أن يغلِبَهُ الكفَّارُ، ولو بلغُوا من القوَّةِ ما بلغُوا.

فمنَ الأدلَّةِ المبيِّنةِ لذلكَ: أنَّ الكفَّارَ لمَّا ضربوا على المسلمينَ ذلكَ الحصارَ العسكريَّ العظيمَ (في غزوةِ الأحزابِ) المذكورَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا

شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١] ـ كانَ علاجُ ذلكَ هو ما ذكرْنا، فانظُرْ شدَّةَ هذا الحصارِ العسكريِّ وقوَّةَ أثرِهِ في المسلمينَ، معَ أنَّ جميعَ أهلِ الأرضِ في ذلكَ الوقتِ قاطعُوهُمْ سياسةً واقتصادًا، فإذا عرفتَ ذلكَ، فاعلَمْ أنَّ العلاجَ الذي قابَلوا بهِ هذا الأمرَ العظيمَ، وحلُّوا بهِ هذهِ المشكلةَ العظمى، وهو ما بيَّنَهُ ـ جلَّ وعلا ـ في سورةِ الأحزابِ بقولِهِ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فهذا الإيمانُ الكاملُ، وهذا التسليمُ العظيمُ للهِ ـ جلَّ وعلا ـ ثقةً به، وتوكُّلًا عليه، هو سببُ حلِّ هذه المشكلةِ العظمَى.

وقد صرَّحَ اللهُ تعالى بنتيجةِ هذا العلاجِ بقولِهِ تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥ ـ ٢٧].

وهذا الذي نصرَهم اللهُ بهِ على عدوِّهم ما كانوا يظنُّونَه، ولا يحسبونَ أنَّهم يُنصرونَ بهِ؛ وهو الملائكةُ والرِّيحُ، قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ [الأحزاب: ٩].

ولمَّا علمَ ـ جلَّ وعلا ـ من أهلِ بيعةِ الرِّضوانِ الإخلاصَ الكاملَ، ونوَّهَ عن إخلاصِهم بالاسمِ المبهمِ الذي هو الموصولُ في قولِهِ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١٨]؛

أي: من الإيمانِ والإخلاصِ؛ كانَ من نتائجِ ذلكَ ما ذكرَهُ اللهُ ـ جلَّ وعلا ـ في قولِهِ: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢١]؛ فصرَّحَ ـ جلَّ وعلا ـ في هذه الآيةِ بأنَّهُمْ لم يَقْدِروا عليها، وأنَّ اللهَ ـ جلَّ وعلا ـ أحاطَ بها فأقدرَهُمْ عليها، وذلكَ من نتائجِ قوَّةِ إيمانِهِمْ وشدَّةِ إخلاصِهِمْ.

فدلَّتِ الآيةُ على أنَّ الإخلاصَ للهِ وقوَّةَ الإيمانِ به، هو السببُ لقدرةِ الضعيفِ على القويِّ وغلبتِهِ له؛ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وقولُهُ تعالى في هذه الآيةِ: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [الفتح: ٢١] فِعْلٌ في سِياقِ النفيِ، والفِعْلُ في سياقِ النفيِ من صِيَغِ العُمومِ على التحقيقِ، كما تقرَّرَ في الأصولِ. . .

فقولُهُ: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ في معنى: لا قُدْرَةَ لكُمْ عليها، وهذا يعُمُّ سلبَ جميعِ أنواعِ القدرةِ؛ لأنَّ النكرةَ في سياقِ النفيِ تدلُّ على عمومِ السَّلْبِ وشمولِهِ لجميعِ الأفرادِ الداخلةِ تحتَ العنوانِ، كما هو معروفٌ في مَحَلِّهِ.

وبهذا تعلمُ أنَّ جميعَ أنواعِ القدرةِ عليها مسلوبٌ عنهم، ولكنَّ اللهَ ـ جلَّ وعلا ـ أحاطَ بها فأقدرَهم عليها؛ لما علمَ من الإيمانِ والإخلاصِ في قلوبِهِم؛ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

المشكلةُ الثانيةُ: هي تسليطُ الكفَّارِ على المؤمنينَ بالقتلِ والجِراحِ وأنواعِ الإيذاءِ، معَ أنَّ المسلمينَ على الحقِّ، والكفَّارَ على الباطلِ.

وهذه المشكلةُ استشكلَها أصحابُ النَّبيِّ ﷺ فأفتى اللهُ ـ جلَّ وعلا ـ فيها، وبيَّنَ السببَ في ذلك بفتوى سماويَّةٍ تُتلى في كتابِهِ جلَّ وعلا.

وذلكَ أنَّه لمَّا وقعَ ما وقعَ بالمسلمينَ يومَ أُحدٍ، فقُتِلَ عمُّ رسولِ اللهِ ﷺ وابنُ عمَّتِهِ، ومُثِّلَ بهما، وقُتِلَ غيرُهما من المهاجرين، وقُتِلَ سبعونَ رجلًا من الأنصارِ، وجُرِحَ ﷺ وشُقَّتْ شَفَتُهُ، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وشُجَّ ـ استشكلَ المسلمونَ ذلكَ، وقالوا: كيفَ ينالُ منَّا المشركونَ؟ ونحنُ على الحقِّ وهم على الباطلِ؟! فأنزلَ اللهُ قولَهُ تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ فيه إجمالٌ بيَّنَهُ تعالى بقولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ففي هذه الفتوى السماويةِ بيانٌ واضحٌ؛ لأنَّ سببَ تسليطِ الكفَّارِ على المسلمين هو فشلُ المسلمينَ، وتنازعُهُمْ في الأمرِ، وعصيانُهُمْ أمرَهُ ﷺ، وإرادةُ بعضِهِمُ الدُّنيا مقدِّمًا لها على أمرِ الرسولِ ﷺ، وقد أوضَحْنا هذا في سورةِ آل عمرانَ، ومن عرفَ أصلَ الداءِ عرفَ الدواءَ، كما لا يخفى.

المشكلةُ الثالثةُ: هي اختلافُ القلوبِ الذي هو أعظمُ الأسبابِ في القضاءِ على كيانِ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ؛ لاستلزامِهِ الفشلَ، وذهابَ

القوَّةِ والدَّوْلَةِ؛ كما قالَ تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقد أوضَحْنا معنى هذه الآيةِ في سورةِ الأنفالِ.

فترى المجتمعَ الإسلاميَّ اليومَ في أقطارِ الدُّنيا يُضمِرُ بعضُهم لبعضٍ العداوةَ والبغضاءَ، وإنْ جامَلَ بعضُهم بعضًا فإنَّه لا يخفى على أحدٍ أنَّها مجاملةٌ، وأنَّ ما تنطوي عليه الضمائرُ مخالفٌ لذلكَ.

وقد بيَّنَ تعالى في سورةِ الحشرِ أنَّ سببَ هذا الداءِ الذي عَمَّتْ به البلوى إنَّما هو ضعفُ العقلِ؛ قالَ تعالى: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾ [الحشر: ١٤]، ثم ذكرَ العلَّةَ لكونِ قلوبِهِمْ شتَّى بقولِهِ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]، ولا شكَّ أنَّ داءَ ضعفِ العقلِ الذي يُصيبُهُ فيُضعفُهُ عن إدراكِ الحقائقِ، وتمييزِ الحقِّ من الباطلِ، والنافعِ من الضارِّ، والحسنِ من القبيحِ، لا دواءَ لهُ إلَّا إنارتُهُ بنورِ الوحيِ؛ لأنَّ نورَ الوحيِ يحيا به مَن كانَ مَيْتًا، ويضيءُ الطريقَ للمتمسِّكِ به؛ فيُريهِ الحقَّ حقًّا والباطلَ باطلًا، والنافعَ نافعًا، والضارَّ ضارًّا، قالَ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ومَن أُخرِجَ من الظلماتِ إلى النورِ أبصرَ الحقَّ؛ لأنَّ ذلك النورَ يكشفُ له عن الحقائقِ فيريه الحقَّ حقًّا، والباطلَ باطلًا، وقالَ تعالى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الملك: ٢٢]، وقالَ تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ١٩ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ٢١ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾ [فاطر: ١٩ ـ ٢٢]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ

وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ الآيةَ [هود: ٢٤]، إلى غيرِ ذلكَ من الآياتِ الدالَّةِ على أنَّ الإيمانَ يُكسِبُ الإنسانَ حياةً بدلًا من الموتِ الذي كانَ فيه، ونورًا بدلًا من الظلماتِ التي كانَ فيها.

وهذا النُّورُ عظيمٌ يكشفُ الحقائقَ كشفًا عظيمًا، كما قالَ تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، ولمَّا كانَ تتبُّعُ جميعِ ما تدلُّ عليهِ هذهِ الآيةُ الكريمةُ من هَديِ القرآنِ للتي هي أقومُ يقتضي تتبُّعَ جميعِ القرآنِ وجميعِ السُّنَّةِ؛ لأنَّ العملَ بالسُّنَّةِ من هديِ القرآنِ للتي هي أقومُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾ [الحشر: ٧] ـ ولمَّا كانَ تتبُّعُ جميعِ ذلك غيرَ مُمكِنٍ في هذا الكتابِ المباركِ، اقتصَرْنا على هذهِ الجُمَلِ التي ذكَرْنا من هديِ القرآنِ للتي هي أقوَمُ؛ تنبيهًا بها على غيرِها والعلمُ عندَ اللهِ تعالى»[1].



(١) «أضواء البيان» (٣/ ٤١٢).



الموعظة الثانية عشرة

۞ **قالَ الشيخُ المصلحُ عبدُ الحميدِ بنُ باديسَ (١٣٥٩هـ)** رَحِمَهُ اللهُ، **في تعليقِهِ على قولِهِ تعالى:** ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]:

«كلُّ الناسِ في هذه الحياةِ حارثٌ وهمَّامٌ، عاملٌ ومُرِيد، فسَفِيهٌ ورَشِيد، وشَقِيٌّ وسَعِيد، منهم من يريدُ بأعمالِهِ هذه الدارَ العاجلةَ والحياةَ الدُّنيا، عليها قصرَ همَّهَ، وعلى حُظوظِها عقدَ ضميرَهُ، وجعلَها وِجْهَةَ قصدِهِ، ونصبَها غايةَ سعيِهِ، لا يرجو وراءَها ثَوابا، ولا يخافُ عِقابا، فهو مُقبِلٌ عليها بقلبِهِ وقالبِهِ، معرِضٌ عن غيرِها بكليَّتِهِ، فلا يجيبُ داعيَ اللهِ بترغيبٍ ولا ترهيبٍ، ولا يتقيَّدُ في سلوكِهِ بشرائعِ العدلِ والإحسانِ.

فمَن كانتْ هذهِ إرادتَهُ، ولهذا عملُهُ عجَّلَ اللهُ له في الدُّنيا ما مضى في مشيئتِهِ تعالى أن يعجِّلَهُ لهُ، إن كانَ ممَّنْ أرادَ التعجيلَ لهُمْ، بحُكمِ إبدالِ الجارِّ والمجرورِ في قولِهِ: ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ من الجارِّ والمجرورِ في قولِهِ: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ﴾؛ فالتعجيلُ منه تعالى لمَن يُريد، لا لكلِّ مُريد.

والشيءُ المعجَّلُ (في قدرِهِ وجِنْسِهِ ومدَّتِهِ) على ما يشاءُ الربُّ المعطي، لا على ما يشاءُ العبدُ المريدُ.

فكم من مريدٍ للدُّنيا من يقصدُ الشيءَ فلا ينالُ إلَّا بعضَهُ، فيَضِيعُ عليه شطرُ عملِهِ، فلا في هذه الدارِ، ولا في تلك الدارِ، وكَمْ منهُمْ مَنْ سعى واجتهدَ وانتهى بالخَيبةِ والحِرمان، فعادَ ـ بعدَ النَّصَبِ ـ ولا ثمرةَ حصَّلها عاجِلا، ولا ثوابًا ادخرَهُ آجِلا، وذلكَ هوَ الخُسرانُ المبينُ، ثمَّ إذا قَدِمَ على اللهِ في الآخرةِ أعدَّ له جهنَّمَ دارَ العذابِ، واضطرَّهُ إلى دخولِها، فيَصْلاها ﴿مَذْمُومًا﴾؛ مذكورًا بقُبحِ فعلِهِ وسُوءِ صنيعِهِ؛ في قلَّةِ شُكرِهِ ربَّهُ، وعدمِ استعمالِهِ ما كانَ أَنعَمَ عليه به في طاعتِهِ، وعدمِ نظرِهِ لعاقبةِ أمرِهِ، ﴿مَّدْحُورًا﴾ مُبعَدًا في أقصى النارِ مطرودًا من الرحمةِ، حَرَمَ نفسَهُ من استثمارِ رحمةِ اللهِ في الدُّنيا بالشُّكرِ عليها، فكانَ عدلًا أن يُحرمَ منها في الآخرةِ.

ونظيرُ هذه الآيةِ آيةُ: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]؛ عَمِلَ للدُّنيا فنالَ نصيبَهُ منها، ولم يعملْ للآخرةِ فلم يكُنْ له نصيبٌ فيها، والتقييدُ بـ(من) في قولِهِ تعالى: ﴿مِنْهَا﴾ على أنَّ ما ينالُهُ ـ سواءٌ أكانَ كلَّ ما أرادَ أم بعضَهُ ـ ما هوَ إلَّا بعضٌ من الدُّنيا.

وإذا كانت الدُّنيا كلُّها شيئًا زهيدًا، بقلَّتِها وفنائِها ونَغَصِها بالنِّسبةِ إلى أقلِّ شيءٍ من نعيمِ الآخرةِ ـ فما بالُكَ بما هو بعضٌ منها؛ فلقَد خابَ وخَسِرَ مَن استبدلَ بنعيمِ الآخرةِ هذا القليلَ الخسيسَ المنغَّصَ الزهيدَ!

ونظيرُها أيضًا آيةُ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، وتَوْفِيَتُهُمْ

أعمالَهم: إنالتُهم ثمراتِها مكمَّلةً في الدُّنيا، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾؛ لا يُنقصون من جزائِهم عليها بتحصيلِ المُسبَّباتِ التي تَوَسَّلوا إليها بأسبابِها، ثمَّ في الآخرةِ تَحْبَطُ تلكَ الأعمالُ؛ فلا يكونُ عليها من جزاءٍ ولا لها من ثمرةٍ؛ لأنَّها كانت أعمالًا باطلةً لا ثباتَ لها.

عَمَلٌ للدنيا دارِ الزوالِ زالَ بزوالِها، وبَقِيَ على عمَّالِها إثمُ عدمِ شكرِهم لربِّهم؛ فدخلُوا به النارَ، وتلكَ عاقبةُ الظالمينَ، غيرَ أنَّ هاتَينِ الآيتينِ مُطلقَتانِ في الشيءِ المُعْطَى والشخصِ المُعْطَى لهُ، وآيَةَ الإسراءِ مقيَّدةٌ بمشيئةِ اللهِ تعالى وإرادتِهِ فيهما، والمُطلَقُ محمولٌ على المقيَّدِ في البيانِ والأحكامِ.

وقَدْ أفادَتْ هذهِ الآياتُ كلُّها: أنَّ الأسبابَ الكونيَّةَ التي وضعَها اللهُ تعالى في هذه الحياةِ وسائلُ لمُسبَّباتِها، مُوصِلةٌ ـ بإذنِ اللهِ تعالى ـ مَن تمسَّكَ بها إلى ما جُعِلَتْ وسيلةً إليهِ، بمقتضى أمرِ اللهِ وتقديرِهِ وسُنَّتِهِ في نظامِ هذه الحياةِ والكَونِ، ولو كانَ ذلك المتمسِّكُ بها لا يؤمنُ باللهِ ولا باليومِ الآخرِ ولا يُصدِّقُ المُرسِلِينَ.

ومن مقتضى هذا: أنَّ مَن أهملَ تلكَ الأسبابَ الكونيَّةَ التقديريَّةَ الإلهيَّةَ، ولم يأخُذْ بها ـ لم يَنَلْ مسبَّباتِها ولو كانَ منَ المؤمنينَ، وهذا معلومٌ ومشاهدٌ من تاريخِ البشرِ في ماضيهم وحاضرِهم، نعم، لا يَضيعُ على المؤمنِ أجرُ إيمانِهِ، ولكنَّ جزاءَهُ عليه في غيرِ هاتِهِ الدارِ، كما أنَّ الآخرَ لم يَضِعْ عليهِ أخْذُهُ بالأسبابِ؛ فنالَ جزاءَهُ في دارِ الأسبابِ، وليسَ له في الآخرةِ إلا النارُ.

فالعبادُ ـ إذن ـ على أربعةِ أقسامٍ:

١ ـ **مؤمنٌ آخذٌ بالأسبابِ الدُّنيويَّةِ**، فهذا سعيدٌ في الدُّنيا والآخرةِ.

٢ ـ **ودهريٌّ تاركٌ لها**، فهذا شقيٌّ فيهما.

٣ ـ **ومؤمنٌ تاركٌ للأسبابِ**، فهذا شقيٌّ في الدُّنيا، وينجو ـ بعدَ المؤاخذةِ على التَّرْكِ ـ في الآخرةِ.

٤ ـ **ودهريٌّ آخذٌ بالأسبابِ الدنيويةِ**، فهذا سعيدٌ في الدنيا، ويكونُ في الآخرةِ من الهالكين.

فلا يفتنَنَّ المسلمين بعدَ علمِ هذا ما يرونه من حالِهم وحالِ مَن لا يدينُ دينَهم، فإنه لم يكنْ تأخرُهم لإيمانِهم، بل بتركِ الأخذِ بالأسبابِ الذي هو سببُ تأخرِهم من ضعفِ إيمانِهم، ولم يتقدَّمْ غيرُهم بعدمِ إيمانِهم، بل بأخذِهم بأسبابِ التقدُّمِ في الحياةِ.

وقد علموا أنهم مضتْ عليهم أحقابٌ وهم من أهلِ القسمِ الأولِ بإيمانِهم وأعمالِهم، وما صاروا من أهلِ القسمِ الثالثِ إلا لما ضَعُفَ إيمانُهم وساءَتْ أعمالُهم وكثُر إهمالُهم؛ فلا لومَ ـ إذن ـ إلا عليهم في كلِّ ما يُصيبُهم، وربُّكَ يقضي بالحقِّ وهو الفتَّاحُ العليمُ»[1].

❊ ❊ ❊

---

(١) «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» (ص٤٩).



۞ **قالَ العلَّامةُ الطاهرُ بنُ عاشورٍ (١٣٩٣هـ)** رَحِمَهُ اللهُ **في تفسيرِ قولِهِ تعالى:** ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا...﴾ [الإسراء: ٢٣]:

«ومقصدُ الإسلامِ من الأمرِ ببرِّ الوالدين وبصِلَةِ الرحمِ ينحلُّ إلى مقصدين:

أحدُهما: نفسانيٌّ، وهو تربيةُ نفوسِ الأمةِ على الاعترافِ بالجميلِ لصانعِهِ، وهو الشكرُ؛ تخلُّقًا بأخلاقِ الباري تعالى في اسمِهِ الشَّكورِ، فكما أمرَ بشكرِ اللهِ على نعمةِ الخلقِ والرزقِ، أمرَ بشكرِ الوالدين على نعمةِ الإيجادِ الصُّوريِّ ونعمةِ التربيةِ والرحمةِ.

وفي الأمرِ بشكرِ الفضائلِ تنويهٌ بها وتنبيهٌ على المنافسةِ في إسدائِها.

والمقصدُ الثاني: عُمرانيٌّ، وهو أن تكونَ أواصرُ العائلةِ قويَّةَ العُرَا مشدودةَ الوثوقِ؛ فأمرَ بما يحقِّقُ ذلك الوثوقَ بينَ أفرادِ العائلةِ، وهو حسنُ المعاشرةِ؛ ليربِّيَ في نفوسِهم من التحابِّ والتوادِّ ما يقومُ مقامَ عاطفةِ الأمومةِ الغريزيةِ في الأمِّ، ثم عاطفةِ الأبوَّةِ المنبعثةِ عن إحساسٍ بعضُهُ غريزيٌّ ضعيفٌ وبعضُهُ عقليٌّ قويٌّ؛ حتى إنَّ أثرَ ذلك الإحساسِ ليساوي بمجموعِهِ أثرَ عاطفةِ الأمِّ الغريزيةِ أو يفوقُها في حالةِ كِبَرِ الابنِ، ثم وزَّعَ الإسلامُ ما دعا إليه من ذلك بينَ بقيَّةِ مراتبِ القرابةِ على حسَبِ

الدنوّ في القربِ النسبيِّ بما شرعَهُ من صلةِ الرحمِ، وقد عزَّزَ اللهُ قابليَّةَ الانسياقِ إلى تلك الشِّرعةِ في النفوسِ. . .

وفي هذا التكوينِ لأواصرِ القرابةِ صلاحٌ عظيمٌ للأمَّةِ تظهرُ آثارُهُ في مواساةِ بعضِهم بعضًا، وفي اتِّحادِ بعضِهم مع بعضٍ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وزادَهُ الإسلامُ توثيقًا بما في تضاعيفِ الشريعةِ من تأكيدِ شدِّ أواصرِ القرابةِ أكثرَ ممَّا حاولَهُ كلُّ دِينٍ سَلَفَ»[١].

❊ ❊ ❊

(١) «التحرير والتنوير» (١٤/ ٥٩ ـ ٦٠) بتصرف يسير.



المَوعِظَةُ الرَّابعَةَ عَشْرَةَ

قالَ العلَّامةُ السعديُّ (١٣٧٦هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨]:

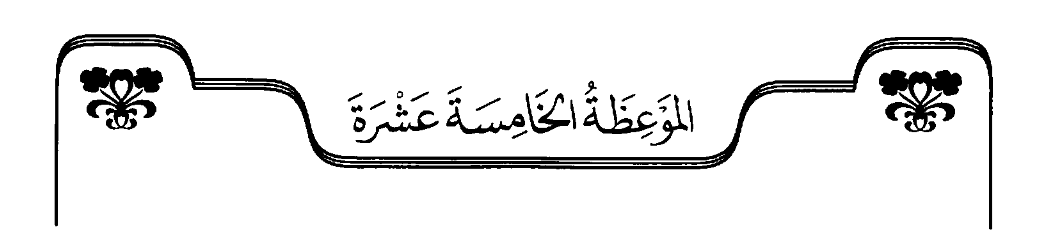
«أي: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: بقلوبِهم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: بجوارحِهم، وشملَ هذا الوصفُ جميعَ الدِّينِ؛ عقائدِهِ وأعمالِهِ، أصولِهِ وفروعِهِ الظاهرةِ والباطنةِ؛ فهؤلاء ـ على اختلافِ طبقاتِهم من الإيمانِ والعملِ الصالحِ ـ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ﴾...؛ فجنةُ الفردوسِ نُزُلٌ، وضيافةٌ لأهلِ الإيمانِ والعملِ الصالحِ، وأيُّ ضيافةٍ أجلُّ وأكبرُ، وأعظمُ من هذه الضيافةِ المحتويةِ على كلِّ نعيمٍ للقلوبِ، والأرواحِ، والأبدانِ، وفيها ما تشتهيهِ الأنفسُ، وتلذُّ الأعينُ من المنازلِ الأنيقةِ، والرِّياضِ الناضرةِ، والأشجارِ المثمرةِ، والطيورِ المغرِّدةِ المشجيةِ، والمآكلِ اللذيذةِ، والمشاربِ الشهيَّةِ، والنِّساءِ الحسانِ، والخَدَمِ، والولدانِ، والأنهارِ السارحةِ، والمناظرِ الرائقةِ، والجمالِ الحسيِّ والمعنويِّ، والنِّعمةِ الدائمةِ، وأعلى ذلكَ وأفضلُهُ وأجلُّهُ التنعُّمُ بالقربِ من الرحمٰنِ ونيلُ رضاه، الذي هو أكبرُ نعيمِ الجِنانِ، والتمتُّعُ برؤيةِ وجهِهِ الكريمِ، وسماعِ كلامِ الرؤوفِ الرحيمِ، فللَّهِ تلكَ الضيافةُ؛ ما أجلَّها وأجملَها، وأدومَها وأكملَها! وهي أعظمُ مِن أن يحيطَ بها وصفُ أحدٍ من الخلائقِ، أو تخطرَ على القلوبِ.

فلو علمَ العبادُ بعضَ ذلك النعيمِ علمًا حقيقيًّا يصلُ إلى قلوبِهِمْ، لطارتْ إليه قلوبُهُم بالأشواق، ولتقطَّعَتْ أرواحُهم من ألمِ الفِراق، ولساروا إليه زَرافاتٍ ووحدانًا، ولم يُؤثِروا عليه دنيا فانيةً، ولذَّاتٍ منغَّصةً متلاشيةً، ولم يفوِّتوا أوقاتًا تذهبُ ضائعةً خاسرةً، يقابِلُ كلَّ لحظةٍ منها من النعيمِ من الحِقَبِ آلافٌ مؤلَّفةٌ، ولكنَّ الغفلةَ شملتْ، والإيمانَ ضَعُفَ، والعلمَ قلَّ، والإرادةَ نَفِدَتْ؛ فكانَ ما كانَ، فلا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ»[1].



---

(١) «تفسير السعدي» (ص٤٨٨).



الموعظة الخامسة عشرة

۞ **قالَ العلَّامةُ السعديُّ (١٣٧٦هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقِهِ على الآياتِ التي ذُكِرَتْ فيها صفاتُ عبادِ الرحمٰنِ في آخرِ سورةِ الفرقانِ:**

«وإذا استقرأْنا حالَهم وصفاتِهِمْ عرفْنا من هِمَمِهِمْ وعلوِّ مرتبتِهِمْ أنَّهُمْ لا تقَرُّ أعينُهُمْ حتَّى يرَوْهُم مُطيعِينَ لربِّهِمْ، عالمينَ عاملينَ، وهذا كما أنَّهُ دعاءٌ لأزواجِهِمْ وذريَّاتِهِمْ في صلاحِهِمْ، فإنَّهُ دعاءٌ لأنفسِهِمْ؛ لأنَّ نفعَهُ يعودُ عليهِمْ؛ ولهذا جعلوا ذلكَ هِبَةً لهُمْ فقالوا: ﴿هَبْ لَنَا﴾ [الفرقان: ٧٤] بلْ دعاؤُهُمْ يعودُ إلى نفعِ عمومِ المسلمين؛ لأنَّ صلاحَ مَن ذُكِرَ يكونُ سببًا لصلاحِ كَثيرٍ ممَّن يتعلَّقُ بهِمْ وينتفع بهِمْ. . .

ولهذا، لمَّا كانتْ هِمَمُهُمْ ومطالبُهُمْ عاليةً، كانَ الجزاءُ من جنسِ العملِ؛ فجازاهُمْ بالمنازلِ العالياتِ، فقالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥]؛ أي: المنازلَ الرفيعةَ، والمساكنَ الأنيقةَ الجامعةَ لكلِّ ما يُشْتَهَى وتلذُّهُ الأعيُنُ؛ وذلكَ بسببِ صبرِهم نالوا ما نالوا، كما قالَ تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، ولهذا قالَ هنا: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]؛ مِنْ ربِّهِمْ، ومِنْ ملائكتِهِ الكرامِ، ومِن بعضِهِم على بعضٍ، ويَسلَمونَ مِن جميعِ المُنغِّصاتِ والمُكدِّراتِ.

والحاصلُ: أنَّ اللهَ وصفَهم بالوقارِ والسكينةِ، والتواضعِ لهُ ولعبادِهِ، وحسنِ الأدبِ، والحِلْمِ، وسَعَةِ الخُلُقِ، والعفوِ عن الجاهلينَ والإعراضِ عنهُمْ ومقابلةِ إساءتِهم بالإحسانِ، وقيامِ الليلِ والإخلاصِ فيهِ، والخوفِ من النارِ والتضرُّعِ لربِّهِمْ أنْ ينجيَهُمْ منها، وإخراجِ الواجبِ والمستحبِّ من النفقاتِ، والاقتصادِ في ذلكَ ـ وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاقِ الذي جرَتِ العادةُ بالتفريطِ فيه أو الإفراطِ، فاقتصادُهُمْ وتوسُّطُهُمْ في غيرِهِ من باب أولى ـ والسلامةِ من كبائرِ الذنوبِ، والاتِّصافِ بالإخلاصِ للهِ في عبادتِهِ، والعفَّةِ عن الدِّماءِ والأعراضِ، والتوبةِ عندَ صُدورِ شيءٍ من ذلكَ، وأنَّهم لا يحضرونَ مجالسَ المنكرِ والفُسوقِ القوليَّةِ والفعليَّةِ ولا يفعلونَها بأنفسِهِمْ، وأنَّهم يتنزَّهون من اللَّغوِ والأفعالِ الرديَّةِ التي لا خيرَ فيها، وذلك يستلزمُ مروءَتَهُمْ وإنسانيَّتَهُمْ وكمالَهُمْ ورفعةَ أنفسِهِمْ عن كلِّ خسيسٍ قوليٍّ وفعليٍّ، وأنَّهم يقابلون آياتِ اللهِ بالقَبولِ لها والتفهُّمِ لمَعانِيها والعملِ بها، والاجتهادِ في تنفيذِ أحكامِها، وأنَّهم يدعون اللهَ تعالى بأكملِ الدُّعاءِ، في الدُّعاءِ الذي ينتفعونَ بهِ، وينتفعُ به مَن يتعلَّقُ بهِمْ، وينتفعُ به المسلمونَ؛ من صلاحِ أزواجِهِمْ وذُريَّتِهِمْ، ومن لوازمِ ذلكَ سعيُهم في تعليمِهِمْ ووَعظِهِمْ ونُصحِهِمْ؛ لأنَّ مَن حرصَ على شيءٍ ودعا اللهَ فيهِ لا بدَّ أن يكونَ متسبِّبًا فيهِ، وأنَّهم دَعَوا اللهَ ببلوغِ أعلى الدرجاتِ الممكنةِ لهم، وهي درجةُ الإمامةِ والصِّديقيَّةِ.

فللَّهِ ما أعلى هذه الصِّفاتِ! وأرفعَ هذه الهمَمَ! وأجلَّ هذه المطالبَ! وأزكى تلكَ النفوسَ! وأطهرَ تلك القلوبَ! وأصفى هؤلاءِ الصَّفوةَ! وأتقى هؤلاءِ السادةَ!

ولله فضلُ اللهِ عليهِمْ! ونعمتُهُ ورحمتُهُ التي جلَّلتْهُمْ! ولطفُه الذي أوصلَهم إلى هذه المنازلِ!

ولله مِنَّةُ اللهِ على عبادِهِ؛ أن بيَّنَ لهُمْ أوصافَهُمْ، ونَعَتَ لهم هيئاتِهِمْ، وبيَّنَ لهم هِمَمَهُمْ، وأوضحَ لهم أُجورَهُمْ؛ ليشتاقُوا إلى الاتِّصافِ بأوصافِهم، ويبذُلوا جهدَهُمْ في ذلكَ، ويسألوا الذي مَنَّ عليهِمْ وأكرمَهُمْ الذي فضلُه في كلِّ زمانٍ ومكان، وفي كلِّ وقتٍ وأوان، أن يهديَهم كما هداهُم، ويتولَّاهُمْ بتربيتِهِ الخاصَّةِ كما تولَّاهُمْ!

فاللَّهُمَّ لكَ الحمدُ، وإليكَ المشتكى، وأنتَ المستعانُ، وبكَ المستغاثُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بكَ، لا نملكُ لأنفسِنا نفعًا ولا ضرًّا، ولا نقدرُ على مثقالِ ذرَّةٍ من الخيرِ إن لم تُيسِّرْ ذلكَ لنا، فإنَّا ضعفاءُ عاجزون من كلِّ وجهٍ!

نشهدُ أنَّك إن وَكَلْتَنا إلى أنفسِنا طرفةَ عينٍ وَكَلْتَنا إلى ضعفٍ وعجزٍ وخطيئةٍ، فلا نثِقُ ـ يا ربَّنا ـ إلَّا برحمتِكَ التي بها خلقتَنا ورزقتَنا وأنعمتَ علينا بما أنعمتَ من النِّعَمِ الظاهرةِ والباطنةِ، وصرفتَ عنَّا منَ النِّقَمِ، فارحمْنا رحمةً تُغنينا بها عن رحمةِ مَن سِواك؛ فلا خابَ مَن سألَكَ ورجاكَ»[(١)].

❀ ❀ ❀

(١) «تفسير السعدي» (ص٥٨٨).



۞ قالَ العلَّامةُ الطاهرُ بنُ عاشورٍ (١٣٩٣هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]:

«موقعُ هذه الآيةِ ومعناها صالحٌ لعدَّةِ وجوهٍ من الموعظةِ، وهي من جوامعِ كلمِ القرآنِ، والمقصدُ منها هو الموعظةُ بالحوادثِ ماضيها وحاضرِها؛ للإقلاعِ عن الإشراكِ وعن تكذيبِ الرسولِ ﷺ.

فأما موقعُها، فيجوزُ أن تكونَ متَّصلةً بقوله قبلَها: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟﴾ الآياتِ [الروم: ٩]؛ فلمَّا طُولِبُوا بالإقرارِ على مَا رأوهُ من آثارِ الأُمَمِ الخاليةِ، أو أُنكِرَ عليهم عدمُ النظرِ في تلكَ الآثارِ، أُتبِعَ ذلكَ بما أدَّى إليهِ طريقُ الموعظةِ من قولِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، ومِنْ ذكرِ الإنذارِ بعذابِ الآخرةِ، والتذكيرِ بدلائلِ الوَحدانيَّةِ ونِعَمِ اللهِ تعالى وتفريعِ استحقاقِهِ تعالى الشكرَ لذاتِهِ ولأجلِ إنعامِهِ استحقاقًا مستقرًّا إدراكُهُ في الفطرةِ البشريةِ، وما تخلَّلَ ذلك من الإرشادِ والموعظةِ، عادَ الكلامُ إلى التذكيرِ بأنَّ ما حلَّ بالأُممِ الماضيةِ من المصائبِ ما كانَ إلَّا بما كسبتْ أيديهِمْ؛ أي: بأعمالِهِمْ، فيوشكُ أن يحلَّ مثلُ ما حلَّ بهِمْ بالمُخاطَبِينَ الذينَ كسبَتْ أيديهِمْ مثلَ ما كسبَتْ أيدي أولئكَ.

فموقعُ هذه الجملةِ على هذا الوجهِ موقعُ النتيجةِ من مجموعِ الاستدلالِ، أو موقعُ الاستئنافِ البيانيِّ بتقديرِ سؤالٍ عن سببِ ما حلَّ بأولئكَ الأُممِ.

ويجوزُ أن تقعَ هذه الآيةُ موقعَ التكمِلَةِ لقولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ الآيةَ [الروم: ٣٣]، فهي خبرٌ مستعمَلٌ في التنديمِ على ما حلَّ بالمكذِّبينَ المُخاطَبينَ من ضُرٍّ؛ ليعلموا أنَّ ذلك عقابٌ من اللهِ تعالى؛ فيُقلعوا عنه خشيةَ أن يُحيطَ بهِمْ ما هو أشدُّ منه، كما يؤذنُ به قولُهُ عقبَ ذلك: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]؛ فالإتيانُ بلفظِ الناسِ في قولِهِ: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ؛ لزيادةِ إيضاحِ المقصودِ، ومقتضى الظاهرِ أن يُقالَ: (بما كسبَتْ أَيدِيهِمْ)، فالآيةُ تشيرُ إلى مصائبَ نزلَتْ ببلادِ المشركينَ وعطَّلتْ منافعَها، ولعلَّها ممَّا نشأَ عن الحربِ بينَ الرُّومِ وفارسَ، وكانَ العربُ منقسِمِينَ بينَ أنصارِ هؤلاءِ وأنصارِ أولئكَ؛ فكانَ من جراءِ ذلك أن انقطعَتْ سُبُلُ الأسفارِ في البرِّ والبحرِ فتعطَّلت التجارةُ، وقلَّتِ الأقواتُ بمكَّةَ والحجازِ، كما يقتضيه سَوْقُ هذه الموعظةِ في هذه السورةِ المفتتحةِ بـ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ٢].

فموقعُ هذه الجملةِ على هذا الوجهِ موقعُ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لسببِ مسِّ الضرِّ إيَّاهُمْ، حتى لجؤوا إلى الضراعةِ إلى اللهِ، وما بينها وبينَ جملةِ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ [الروم: ٣٣] إلى آخرِهِ اعتراض، واستطرادٌ تخلَّلَ في الاعتراضِ، ويجوزُ أن يكونَ موقعُها موقعَ الاعتراضِ بينَ ذكرِ ابتهالِ الناسِ إلى اللهِ إذا أحاطَ بهم ضرٌّ، ثم إعراضِهم عن عبادتِهِ إذا أذاقَهُمْ منهُ

رحمةً، وبينَ ذكرِ ما حلَّ بالأُممِ الماضيةِ اعتراضًا يُنبئُ أنَّ الفسادَ الذي يظهرُ في العالمِ ما هو إلَّا من جَرَّاءِ اكتسابِ الناسِ، وأن لو استقاموا لكانَ حالُهم على صلاحٍ.

و﴿ٱلْفَسَادُ﴾: سوءُ الحالِ، وهو ضدُّ الصلاحِ.

ودلَّ قولُهُ: ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١] على أنَّه سوءُ الأحوالِ فيما ينتفعُ به الناسُ من خيراتِ الأرضِ برِّها وبحرِها.

ثمَّ التعريفُ في (الفسادِ) إمَّا أن يكونَ تعريفَ العهدِ لفسادٍ معهودٍ لدى المخاطَبِينَ، وإمَّا أن يكونَ تعريفَ الجنسِ الشاملِ لكلِّ فسادٍ ظهرَ في الأرضِ برِّها وبحرِها؛ أي: أنَّه فسادٌ في أحوالِ البرِّ والبحرِ.

وفسادُ البرِّ يكونُ بفقدانِ منافعِهِ وحدوثِ مضارِّهِ، مثلَ: حبسِ الأقواتِ من الزرعِ والثِّمارِ والكلأ، وفي مَوتانِ الحيوانِ المنتفَعِ به، وفي انتقالِ الوحوشِ التي تُصادُ من جَرَّاءِ قحطِ الأرضِ إلى أرضينَ أخرى، وفي حدوثِ الجوائحِ من جرادٍ وحشراتٍ وأمراضٍ.

وفسادُ البحرِ كذلك، يظهرُ في تعطيلِ منافعِهِ من قلَّةِ الحيتانِ واللؤلؤِ والمَرجانِ، فقد كانا من أعظمِ مواردِ بلادِ العربِ، وكثرةِ الزوابعِ الحائلةِ عن الأسفارِ في البحرِ، ونُضوبِ مياهِ الأنهارِ وانحباسِ فيضانِها الذي به يستقي الناسُ...

فذكرُ البرِّ والبحرِ لتعميمِ الجهاتِ؛ بمعنى: ظهرَ الفسادُ في جميعِ الأقطارِ الواقعةِ في البرِّ والواقعةِ في الجزائرِ والشُّطوطِ، ويكونُ الباءُ في قولِهِ: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] للسببيَّةِ، ويكونُ اللامُ في قولِهِ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الروم: ٤١] لامَ العاقبةِ؛ والمعنى:

فأذقناهم بعضَ الذي عملوا؛ أي: فأذقنا الذين أشركوا بعضَ ما استحقُّوه منَ العذابِ لشركِهِمْ.

وأيًا ما كانَ الفسادُ، فالمقصودُ: أنَّ حلولَهُ بالناسِ بقدرةِ اللهِ كما دلَّ عليه قولُهُ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، وأنَّ اللهَ يُقدِّرُ أسبابَهُ تقديرًا خاصًا؛ ليجازيَ مَن يغضبُ عليهِمْ على سُوءِ أفعالِهِمْ.

وأعظمُ ما كسبتْهُ أيدي الناسِ من الأعمالِ السيِّئةِ: الإشراكُ ـ وهو المقصودُ هنا ـ وإن كان الحكمُ عامًّا...

والرجاءُ المستفادُ من (لعلَّ) يشيرُ إلى أنَّ ما ظهرَ من فسادٍ كافٍ لإقلاعِهم عمَّا همُ اكتسبُوهُ، وأنَّ حالَهم حالُ من يُرجَى رجوعُهُ، فإنْ هُمْ لم يرجِعُوا فقَدْ تبيَّنَ تمرُّدُهُمْ وعدمُ إجداءِ الموعظةِ فيهِمْ، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

والرجوعُ مستعارٌ للإقلاعِ عنِ المعاصي، كأنَّ الذي عصى ربَّهُ عبدٌ آبِقٌ عن سيِّدِهِ، أو دابَّةٌ قد أَبَدَتْ، ثم رجعَ»[1].

❁ ❁ ❁

(١) «التحرير والتنوير» (٢١/ ٦٣ ـ ٦٧) بتصرف.



الموعظة السابعة عشرة

۞ **قالَ العلَّامةُ السعديُّ (١٣٧٦هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ عندَ تفسيرِ قولِهِ تعالى:** ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٦ ـ ٤٨]:

«أي: ﴿قُلْ﴾ يا أيُّها الرسولُ، لهؤلاءِ المكذِّبينَ المُعاندينَ، المتصدِّينَ لردِّ الحقِّ وتكذيبِهِ، والقَدْحِ بمَنْ جاءَ بهِ: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: بخَصْلَةٍ واحدةٍ، أُشيرُ عليكُمْ بها، وأنصحُ لكُمْ في سُلوكِها، وهي طريقٌ نَصَفٌ، لستُ أدعوكُمْ بها إلى اتِّباعِ قولي، ولا إلى تركِ قولِكُمْ، من دونِ مُوجِبٍ لذلكَ، وهيَ: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾؛ أي: تَنْهَضُوا بهِمَّةٍ ونشاطٍ، وقصدٍ لاتِّباعِ الصوابِ، وإخلاصٍ للهِ، مجتمعينَ، ومُتباحثينَ في ذلكَ، ومُتناظرينَ، وفُرادى، كلُّ واحدٍ يُخاطبُ نفسَهُ بذلكَ.

فإذا قُمتُمْ للهِ، مثنى وفُرادى، استعملتُمْ فِكرَكُمْ، وأَجَلْتُموهُ، وتدبَّرتُمْ أحوالَ رسولِكُمْ؛ هلْ هوَ مجنونٌ، فيه صفاتُ المجانينِ من كلامِهِ، وهيئتِهِ، وصفتِهِ؟ أم هوَ نبيٌّ صادقٌ، منذرٌ لكمْ ما يضرُّكُمْ، ممَّا أمامَكُمْ من العذابِ الشديدِ؟

فلو قبلوا هذهِ الموعظةَ واستعملُوها، لتبيَّنَ لهُمْ أكثرَ من غيرِهم، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ليسَ بمجنونٍ؛ لأنَّ هيئاتِهِ ليستْ كهيئاتِ المجانينِ، في خَنْقِهِمْ، واخْتِلاجِهِمْ، ونَظَرِهِمْ، بل هيئتُهُ أحسنُ الهيئاتِ، وحركاتُهُ أجلُّ الحركاتِ، وهو أكملُ الخلقِ، أدبًا، وسكينةً، وتواضعًا، ووقارًا، لا يكونُ إلا لأرزنِ الرجالِ عقلًا.

ثم إذا تأمَّلوا كلامَهُ الفَصِيح، ولفظَهُ المَلِيح، وكلماتِهِ التي تملأُ القلوبَ أمنًا وإيمانًا، وتزكِّي النفوسَ، وتطهِّرُ القلوبَ، وتبعثُ على مكارمِ الأخلاقِ، وتحثُّ على محاسنِ الشِّيَمِ، وتُرهِّبُ عن مساوئِ الأخلاقِ ورذائلِها، إذا تكلَّمَ رَمَقَتْهُ العيونُ، هيبةً وإجلالًا وتعظيمًا؛ فهل هذا يشبهُ هذيانَ المجانينِ، وعَرْبَدَتَهُمْ، وكلامَهُمُ الذي يُشبهُ أحوالَهُمْ؟!

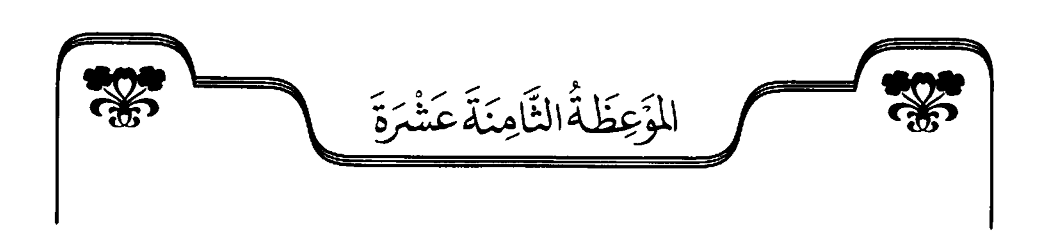
فكلُّ مَن تدبَّرَ أحوالَهُ ومقصدُهُ استعلامُ هلْ هو رسولُ اللهِ أمْ لا - سواءٌ تفكَّرَ وحدَهُ أو معَ غيرِهِ -، جَزَمَ بأنَّهُ رسولُ اللهِ حقًّا، ونبيُّهُ صدقا، خصوصًا المخاطَبِينَ، الذي هوَ صاحبُهُمْ يعرفونَ أوَّلَ أمرِهِ وآخرَهُ.

وثَمَّ مانعٌ للنفوسِ آخرُ عنِ اتِّباعِ الداعي إلى الحقِّ، وهو أنَّه يأخذُ أموالَ مَن يستجيبُ لهُ، ويأخذُ أُجرةً على دعوتِهِ؛ فبيَّنَ اللهُ تعالى نزاهةَ رسولِهِ ﷺ عن هذا الأمرِ فقالَ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: على اتِّباعِكم للحقِّ ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾؛ أي: فأشهدُكم أنَّ ذلك الأجرَ - على التقديرِ - أنه لكم؛ ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ أي: محيطٌ علمُهُ بما أدعُو إليهِ، فلو كنتُ كاذبًا لأخذَنِي بعقوبتِهِ، وشهيدٌ أيضًا على أعمالِكم، سيحفظُها عليكُمْ، ثمَّ يُجازِيكُمْ بها.

ولمَّا بيَّنَ البراهينَ الدالةَ على صحَّةِ الحقِّ، وبطلانِ الباطلِ، أخبرَ تعالى أنَّ هذهِ سُنَّتُهُ وعادتُهُ أنْ ﴿نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: ١٨]؛ لأنَّه بيَّنَ من الحقِّ في هذا الموضعِ، وردَّ به أقوالَ المكذِّبينَ، ما كانَ عبرةً للمُعتبرين، وآيةً للمُتأمِّلين، فإنَّك كما ترى، كيف اضْمَحلَّتْ أقوالُ المكذِّبينَ، وتبيَّنَ كذبُهُمْ وعنادُهُمْ، وظهرَ الحقُّ وسَطَع، وبَطَلَ الباطلُ وانْقَمَع؛ وذلكَ بسببِ بيانِ عَلَّامِ الغُيُوبِ، الذي يعلمُ ما تَنْطَوِي عليهِ القُلوب، منَ الوَساوسِ والشُّبَهِ، ويعلمُ ما يُقابلُ ذلك، ويدفعُهُ منَ الحُجَجِ»[1].



(١) «تفسير السعدي» (ص٨٠٢).



الموعظة الثامنة عشرة

۞ **قالَ العلَّامةُ القاضي أبو محمَّدِ بنُ عطيَّةَ الأندلسيُّ (٥٤١هـ)** رَحِمَهُ اللَّهُ **في تفسيرِ قولِهِ تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]:

«هذه آيةُ موعظةٍ وتذكيرٍ، والإنسانُ فقيرٌ إلى اللهِ تعالى في دقائقِ الأُمورِ وجلائلِها، لا يستغني عنهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وهوَ بهِ مُستَغْنٍ عنْ كلِّ واحدٍ، واللهُ تعالى غنيٌّ عنِ الناسِ، وعَنْ كلِّ شيءٍ من مخلوقاتِهِ غنيٌّ على الإطلاقِ، و﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المحمودُ بالإطلاقِ، وقولُهُ تعالى: ﴿بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: بممتنعٍ، و﴿تَزِرُ﴾؛ معناه: تَحْمِلُ، والوِزْرُ: الثِّقْلُ، وهذهِ الآيةُ في الذنوبِ والآثامِ والجرائمِ؛ قالَهُ قَتادةُ وابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ، **وسببُها:** أنَّ الوليدَ بنَ المُغيرةِ قالَ لقومٍ منَ المؤمنينَ: «اكفرُوا بمحمَّدٍ، وعليَّ وِزرُكُمْ»، فحكمَ اللهُ تعالى بأنَّه لا يحملُها أحدٌ عن أحدٍ...

وأُنِّثَ ﴿وَازِرَةٌ﴾ لأنَّه ذهبَ بها مذهبَ النفسِ، وعلى ذلكَ أُجْرِيَتْ ﴿مُثْقَلَةٌ﴾، و(الحِمْلُ) ما كانَ على الظَّهرِ في الأجرامِ، ويُستعارُ للمعاني كالذنوبِ ونحوِها، فيُجعلُ كلُّ محمولٍ متَّصلًا بالظهرِ، كما يُجعلُ كلُّ اكتسابٍ منسوبًا إلى اليدِ...

ثمَّ أخبرَ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنَّه إنَّما يُنْذِرُ أهلَ الخشيةِ؛ وهمُ الذينَ يُمنَحون العلمَ؛ أي: إنَّما ينتفعُ بالإنذارِ هُمْ، وإلَّا فلِنذَارةِ جميعِ العالمِ

بعثَهُ، وقولُهُ: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ أي: وهوَ بحالِ غيبةٍ عنهُمْ، إنَّما هيَ رسالةٌ.

ثمَّ خصَّصَ منَ الأعمالِ إقامةَ الصلاةِ؛ تنبيهًا عليها وتشريفًا لها، ثمَّ حضَّ على التزكِّي بأنْ رَجَّى عليهِ غايةَ التَّرْجِيَةِ، ثمَّ توعَّدَ بعدَ ذلكَ بقولِهِ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ .

قالَ القاضي أبو محمَّدٍ: وكلُّ عبارةٍ مقصِّرةٌ عن تبيينِ فصاحةِ هذه الآيةِ، وكذلك كتابُ اللهِ كلُّهُ، ولكنْ يظهرُ الأمرُ لنا نحنُ في مواضعَ أكثرَ منهُ في مواضعَ بحسَبِ تقصيرِنا»[١].



(١) «المحرر الوجيز» (٧/ ٢١١)، ط. قطر، باختصار.



الموعظة التاسعة عشرة

۞ قالَ العلَّامةُ السعديُّ (١٣٧٦هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيرِ قولِهِ تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات ٥٤، ٥٥]:

«والتذكيرُ نوعان:

تذكيرٌ بما لمْ يُعرَفْ تفصيلُهُ، ممَّا عُرِفَ مجملُهُ بالفِطَرِ والعُقولِ، فإنَّ اللهَ فطرَ العقولَ على محبَّةِ الخيرِ وإيثارِهِ، وكراهةِ الشرِّ والزُّهدِ فيه، وشرعُهُ مُوافقٌ لذلكَ؛ فكلُّ أمرٍ ونهيٍ من الشرعِ، فإنَّه منَ التذكيرِ، وتمامُ التذكيرِ، أنْ يُذكَرَ ما في المأمورِ به، من الخَيرِ والحُسنِ والمصالحِ، وما في المنهيِّ عنه، من المضارِّ.

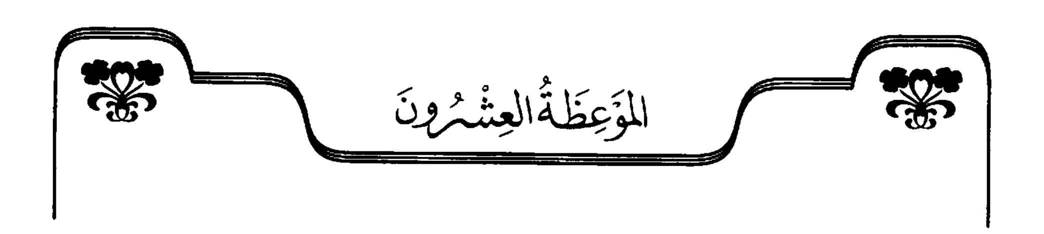
والنوعُ الثاني من التذكيرِ: تذكيرٌ بما هوَ معلومٌ للمؤمنينَ، ولكن انسحبَتْ عليهِ الغفلةُ والذُّهولُ، فيُذكَّرون بذلك، ويُكَرَّرُ عليهم ليرسخَ في أذهانِهم، وينتبهُوا ويعملوا بما تذكَّروهُ من ذلك، وليُحدِثَ لهُمْ نشاطًا وهمَّةً توجبُ لهمُ الانتفاعَ والارتفاعَ.

وأخبرَ اللهُ أنَّ الذكرى تنفعُ المؤمنينَ؛ لأنَّ ما معهُمْ منَ الإيمانِ والخشيةِ والإنابةِ، واتِّباعِ رضوانِ اللهِ ـ يوجبُ لهم أن تنفعَ فيهمُ الذِّكرى، وتقعَ الموعظةُ منهم موقعَها؛ كما قالَ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ٩ ـ ١١].

وأمَّا مَن ليسَ لهُ معهُ إيمانٌ ولا استعدادٌ لقَبولِ التذكيرِ، فهذا لا ينفعُ تذكيرُهُ، بمنزلةِ الأرضِ السَّبِخَةِ، التي لا يُفيدُها المَطَرُ شيئًا، وهؤلاء الصِّنفُ لو جاءتْهُمْ كلُّ آيةٍ لم يُؤمنوا حتَّى يرَوا العذابَ الأليمَ»[١].



(١) «تفسير السعدي» (ص٩٦٦).



المَوعِظَةُ العِشْرُونَ

۞ **قالَ العلَّامةُ العُثيمين (١٤٢١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسيرِ قولِهِ تعالى:** ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠]:

«﴿فَأَعْرِضْ﴾ الخطابُ للرسولِ ﷺ، أوِ المرادُ بهِ كلُّ مَن يَصِحُّ أنْ يُوجَّهَ إليه الخطابُ:

فعلى الأوّلِ يكونُ المعنى: أعرِضْ يا محمَّدُ.

وعلى الثاني يكونُ: أعرضْ أيُّها الإنسانُ المؤمنُ.

﴿عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ يعني: أعرضْ عنهُ؛ لا تَتَّبِعْهُ ولا يهمَّنَّكَ أمرُهُ، وليسَ المعنى: أعرِضْ عنه لا تَنْصَحْهُ؛ لأنَّ التذكيرَ واجبٌ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]؛ يعني: ذكِّرْ كلَّ أحدٍ، فمِنَ الناسِ مَن ينتفعُ، ومنهم لا ينتفعُ، والذي ينتفعُ هو المؤمنُ.

فعلى هذا نقولُ: معنى ﴿أَعْرِضْ﴾؛ يعني: لا تُبالِ بهِ ولا يهمَّنَّكَ أمرُهُ، ولا تستحْسِر من أجلِ تولِّيهِ، بل أُدعُ إلى سبيلِ اللهِ ﷻ أيًّا كانَ، لكن مَن أعرضَ وتولَّى لا يهمَّكَ أمرُهُ، ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ هو القرآنُ، ويحتملُ أن يكونَ الذكرُ بمعنى التذكيرِ؛ أي: عن تذكيرِنا، وكلا المعنيين متلازمانِ صحيحانِ؛ لأنَّ القرآنَ ذِكرٌ كما قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] وقالَ تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]؛

أو المعنى ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾؛ أي: عن تذكيرِنا بالمواعظِ التي ينزِّلُها اللهُ ﷻ: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ يعني: لا يريدُ الآخرةَ ولا يهتمُّ بها، بل همُّهُ الدنيا؛ ما المركوبُ؟ وما الملبوسُ؟ وما المسكنُ؟ فلا يهتمُّ بالآخرةِ، وأهمُّ شيءٍ عندَهُ الدنيا، أما ذكرُ اللهِ ـ القرآنُ ـ أو تذكيرُ اللهِ، فإنَّه مُتَوَلٍّ عنهُ ـ والعياذُ باللهِ ـ نسألُ اللهَ السلامةَ والعافيةَ.

والحياةُ الدُّنيا وصفُها بالدُّنيا من الدُّنُوِّ؛ وهو: القُرْبُ؛ وذلكَ لانحطاطِ مرتبتِها، ولسَبقِها على الآخرةِ؛ لأنَّ الدارَ الدُّنيا هيَ أوَّلُ دارٍ ينزلُها الإنسانُ، وهي سابقةٌ في الزمنِ على الآخرةِ، فهي دنيا قريبةٌ، وهيَ أيضًا دنيا من حيثُ المرتبةُ، ليستْ بشيءٍ بالنِّسبةِ للآخرةِ، ولهذا قالَ النبيُّ ـ عليه الصلاةُ والسلامُ ـ فيما صحَّ عنه: (**لَمَوضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**).

فليستْ خيرًا من الدنيا التي أنتَ فيها فقط؛ بلْ منَ الدُّنيا منذُ أنْ خلقَها اللهُ إلى أنْ تفنى، موضعُ السَّوطِ الذي يكونُ بقدرِ المترِ في الجنَّةِ خيرٌ منَ الدُّنيا وما فيها، إذن هي دنيا حقيقةً، ولهذا إذا ماتَ الإنسانُ وهو مؤمنٌ ـ جعلَنا اللهُ منهُمْ ـ ثمَّ حُمِلَ من بيتِهِ الذي يسكنُهُ ويأوي إليهِ، وفيهِ أهلُهُ ومالُهُ وحَشَمُهُ، إذا خرجَ تقولُ روحُهُ: (**قَدِّمُونِي قَدِّمُونِي**)؛ لأنَّ ما ستذهبُ إليهِ خيرٌ ممَّا تخرجُ منه، قالَ اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧] لكنْ لمَنْ؟ ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٠٣] لكنَّها شرٌّ لمَنْ لم يَتَّقِ.

ويُذكَرُ أنَّ ابنَ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **وكانَ رئيسَ القضاءِ في مصرَ**، مرَّ يومًا من الأيَّامِ في موكبِهِ ـ على العربةِ تجرُّها البغالُ، وحولَهُ الجنودُ ـ برجلٍ

يهوديٌّ زيَّاتٍ يبيعُ الزيتَ، قد تدنَّسَتْ ثيابُهُ بالزيتِ، وشَقِيَ في طلبِ المعيشةِ، فأوقفَهُ اليهوديُّ، وقالَ لابنِ حَجَرٍ: إنَّ نبيَّكُمْ يزعمُ أنَّ الدُّنيا سجنُ المؤمنِ وجنَّةُ الكافرِ! فكيفَ يَتَّفقُ هذا الحديثُ معَ الواقعِ؟! أنتَ الآنَ مؤمنٌ وهوَ يهوديٌّ فأيُّهما الشقيُّ؟! قالَ: نعم؛ ما أنا فيهِ الآنَ بالنِّسبةِ للآخرةِ سجنٌ؛ لأنَّ الآخرةَ خيرٌ لمنَ اتَّقى، وما أنتَ فيه بالنِّسبةِ للآخرةِ جنَّةٌ؛ لأنَّ الآخرةَ ليسَ لكَ فيها إلَّا النارُ وبئسَ القرارُ، فقالَ: أشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، فانظُرْ كيف فتحَ اللهُ عليهِ، حيثُ ظهرَ صِدقُ كلامِ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ بكلِّ سهولةٍ.

فالآخرةُ خيرٌ منَ الدُّنيا وما فيها، ولهذا ذمَّ اللهُ تعالى الذي أعرضَ عن ذكرِ اللهِ، ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، ومن أرادَ الحياةَ الدُّنيا لنْ تحصلَ له قطعًا، قالَ اللهُ تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨]؛ أي: ما يشاءُ اللهُ، لا ما يشاءُ هو ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩]. وقالَ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾؛ لأنَّه يُعطى الدُّنيا والآخرةَ، ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾؛ أي: بعضَها وليسَ كلَّها ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ والمُشارُ إليهِ كونُهم متولِّينَ مُعرِضينَ، لا يريدونَ إلَّا الحياةَ الدُّنيا؛ يعني: ذلكَ منتهى بلوغِ علمِهم؛ لأنَّ علمَهم قاصرٌ، لا ينظرون إلى المستقبلِ، ولا يصدِّقون بخبرٍ، فتجدُ أكبرَ همِّهِمْ أن يُصْلِحوا حالَهم في الدُّنيا مُعرضينَ عن حالِهم في الآخرةِ، وفي الدُّعاءِ

المأثورِ: (اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا).

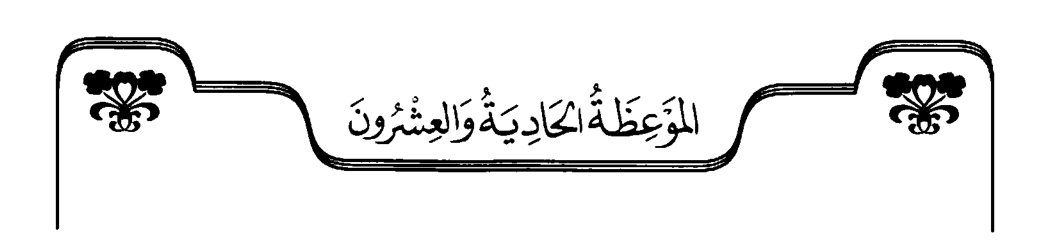
ثـــمَّ قـــالَ ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ هوَ أعلمُ ﷻ بمَنْ ضلَّ عن سبيلِهِ فعلًا، ومَنْ سيضلُّ؛ لأنَّه عالمٌ بما كانَ وبما يكونُ، فقولُهُ: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ لا تعني أنَّه لا يعلمُ إلَّا مَنْ حصلَ منهُ الضلالُ بالفعلِ؛ بلْ هوَ يعلمُ مَنْ حصلَ منهُ الضلالُ بالفعلِ، ومَنْ سيحصلُ منهُ؛ لأنَّ اللهَ ﷻ موصوفٌ بالعلمِ التامِّ في الحاضرِ والمستقبلِ والماضي، وقولُهُ: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ ضدُّ الضلالِ؛ فالناسُ بينَ فِئَتينِ: إمَّا مهتدٍ وإمَّا ضالٌّ، وإنَّما بيَّنَ اللهُ ﷻ أنَّه أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيلِهِ، وبمن اهتدى؛ لفائدتين:

الفائدةُ الأولى: أن نعلمَ أنَّ ما وقعَ منَ الضلالِ والهدايةِ فهو صادرٌ عن علمِ اللهِ وبإرادتِهِ؛ إذ لا يمكنُ أن يوجدَ في خلقِهِ خلافُ معلومِهِ، ولو قُدِّرَ أنْ يوجدَ في خلقِهِ خلافُ معلومِهِ لكانَ اللهُ جاهلًا، وحاشاهُ من ذلك!

الفائدةُ الثانيةُ: التحذيرُ من الضلالِ، والترغيبُ في الاهتداءِ، ما دامَ الإنسانُ يعلمُ أنَّ أيَّ عملٍ صدرَ منهُ فعلمُهُ عندَ اللهِ، فإنَّه سوفَ يخشى أن يعصيَ اللهَ، وسوفَ يسعى أن يُرضيَ اللهَ ﷻ؛ كأنَّه يقولُ: إن ضللتَ فاللهُ أعلمُ بكَ، وإنِ اهتديتَ فاللهُ أعلمُ بكَ، فيجزيَ الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزيَ الذينَ أحسنوا بالحُسنى»[1].

❁ ❁ ❁

(١) باختصار من تفسير سور «الحجرات ـ الحديد» (ص٢٢٤).



الموعظة الحادية والعشرون

۞ **قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ (٧٢٨هـ) رَحِمَهُ اللهُ، معلِّقًا على قولِه تعالى في سورةِ المجادلةِ:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [١١]:

«خصَّ سبحانَهُ رفعَهُ بالأقدارِ والدرجاتِ الذين أُوتوا العلمَ والإيمانَ، وهمُ الذينَ استشهدَ بهم في قولِهِ تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] وأخبرَ أنَّهم همُ الذينَ يرونَ ما أُنزِلَ إلى الرسولِ هو الحقَّ بقولِهِ تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦] فدلَّ على أنَّ تعلُّمَ الحُجَّةِ والقيامَ بها يرفعُ درجاتِ مَن يرفعُها، كما قالَ تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]، قالَ زيدُ بنُ أَسْلَمَ: (بالعِلْمِ).

فرفعُ الدرجاتِ والأقدارِ على قدرِ معاملةِ القلوبِ بالعلمِ والإيمانِ، فكم ممَّن يختمُ القرآنَ في اليومِ مرَّةً، أو مرَّتينِ، وآخرُ لا ينامُ الليلَ، وآخرُ لا يفطرُ، وغيرُهم أقلُّ عبادةً منهم وأرفعُ قدرًا في قلوبِ الأُمَّةِ! فهذا كُرْزُ بنُ وَبْرَةَ، وكَهْمَسٌ، وابنُ طارقٍ، يختمون القرآنَ في الشهرِ تسعين مرَّةً، وحالُ ابنِ المسيَّبِ، وابنِ سِيرينَ، والحَسَنِ ـ وغيرهم ـ في القلوبِ أرفعُ!

وكذلك ترى كثيرًا ممَّن لَبِسَ الصُّوفَ، ويهجرُ الشَّهواتِ، ويتقشَّفُ، وغيرُهُ ـ ممَّنْ لا يُدانيهِ في ذلكَ ـ من أهلِ العلمِ والإيمانِ أعظمُ في القلوبِ، وأحلى عندَ النفوسِ، وما ذاكَ إلَّا لقوَّةِ المُعاملةِ الباطنةِ، وصفائِها، وخُلوصِها من شهواتِ النفوسِ، وأكدارِ البشريَّةِ، وطهارتِها من القلوبِ التي تكدِّرُ معاملةَ أولئكَ.

وإنَّما نالوا ذلكَ بقوَّةِ يقينِهم بما جاءَ به الرسولُ، وكمالِ تصديقِهِ في قلوبِهم، ووِدِّهِ، ومحبَّتِهِ، وأن يكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ، فإنَّ أرفعَ درجاتِ القلوبِ فرحُها التامُّ بما جاءَ به الرسولُ، وابتهاجُها وسرورُها؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقالَ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟...﴾ الآيةَ [يونس: ٥٨] **ففضلُ اللهِ ورحمتُهُ**: القرآنُ، والإيمانُ، مَنْ فَرِحَ بهِ فقدْ فَرِحَ بأعظمِ مفروحٍ بهِ، ومَنْ فرحَ بغيرِهِ فقد ظلَمَ نفسَهُ، ووضعَ الفرحَ في غيرِ موضعِهِ، فإذا استقرَّ في القلبِ، وتمكَّنَ فيهِ العلمُ بكفايتِهِ لعبدِهِ ورحمتِهِ لهُ، وحلمِهِ عندَهُ، وبرِّهِ به، وإحسانِهِ إليهِ على الدوامِ ـ أوجبَ له الفرحَ والسُّرورَ أعظمَ من فرحِ كلِّ محبٍّ بكلِّ محبوبٍ سِواهُ، فلا يزالُ مترقِّيًا في درجاتِ العلوِّ والارتفاعِ بحسَبِ رُقِيِّهِ في هذهِ المعارفِ، هذا في بابِ معرفةِ الأسماءِ والصِّفاتِ.

وأمَّا في بابِ فهمِ القرآنِ، فهو دائمُ التفكُّرِ في معانيهِ، والتدبُّرِ لألفاظِهِ، واستغنائِهِ بمعاني القرآنِ وحِكَمِهِ عن غيرِهِ من كلامِ الناسِ، وإذا سمعَ شيئًا من كلامِ الناسِ وعُلومِهِمْ عرضَهُ على القرآنِ، فإن شهدَ لهُ بالتزكيةِ قَبِلَهُ، وإلا ردَّهُ، وإن لم يشهَدْ له بقَبولٍ ولا ردٍّ وَقَفَهُ، وهمَّتُهُ عاكفةٌ على مُرادِ ربِّهِ من كلامِهِ، ولا يجعلُ همَّتَهُ فيما حُجِبَ به أكثرُ

الناسِ من العلومِ عن حقائقِ القرآنِ: إمَّا بالوسوسةِ في خروجِ حروفِهِ، وترقيقِها، وتفخيمِها، وإمالتِها، والنُّطقِ بالمدِّ الطويلِ والقصيرِ والمتوسِّطِ، وغيرِ ذلك، فإنَّ هذا حائلٌ للقلوبِ، قاطعٌ لها عن فهمِ مُرادِ الربِّ من كلامِهِ، وكذلك شغلُ النُّطقِ بـ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾، وضمُّ الميمِ من ﴿عَلَيْهِم﴾ ووصلُها بالواوِ، وكسرُ الهاءِ، أو ضمُّها، ونحوُ ذلك.

وكذلك مراعاةُ النَّغَمِ، وتحسينُ الصوتِ، وكذلك تتبُّعُ وجوهِ الإعرابِ، واستخراجُ التأويلاتِ المستكرهةِ التي هي بالألغازِ والأحاجيِّ أشبهُ منها بالبيانِ.

وكذلك صرفُ الذهنِ إلى حكايةِ أقوالِ الناسِ، ونتائجِ أفكارِهم، وكذلك تأويلُ القرآنِ على قولِ مَن قَلَّدَ دينَهُ، أو مذهبَهُ؛ فهو يتعسَّفُ بكلِّ طريقٍ حتى يجعلَ القرآنَ تبعًا لمذهبِهِ، وتقويةً لقولِ إمامِهِ، وكلٌّ محجوبونَ بما لديهِمْ عن فهمِ مرادِ اللهِ من كلامِهِ في كثيرٍ من ذلكَ، أو أكثرِهِ.

وكذلك يظنُّ مَن لم يقدِّرِ القرآنَ حقَّ قدرِهِ أنَّه غيرُ كافٍ في معرفةِ التوحيدِ والأسماءِ والصِّفاتِ، وما يجبُ للهِ ويُنزَّهُ عنه، بلِ الكافي في ذلك عقولُ الحَيارى، والمُتَهَوِّكِينَ، الذين كلٌّ منهُمْ قد خالفَ صريحَ القرآنِ مخالفةً ظاهرةً، وهؤلاء أغلظُ الناسِ حجابًا عن فهمِ كتابِ اللهِ تعالى، واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ»[1].



(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤٨ ـ ٥١).



قالَ ابنُ القيم (٧٥١هـ) رَحِمَهُ اللهُ، في تعليقِهِ على قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]:

«وإذا نسيَ العبدُ نفسَهُ أعرضَ عن مصالحِها ونَسِيَها، واشتغلَ عنها، فهلكَتْ وفسدَتْ ولا بدَّ؛ كمَنْ له زرعٌ أو بستانٌ، أو ماشيةٌ، أو غيرُ ذلك، ممَّا صلاحُهُ وفلاحُهُ بتعاهُدِهِ، والقيامِ عليه، فأهملَهُ ونَسِيَهُ، واشتغلَ عنه بغيرِهِ، وضيَّعَ مصالحَهُ، فإنَّه يفسُدُ ولا بدَّ، هذا معَ إمكانِ قيامِ غيرِهِ مَقامَهُ فيه، فكيف الظنُّ بفسادِ نفسِهِ، وهلاكِها، وشقائِها إذا أهملَها ونَسِيَها، واشتغلَ عنْ مصالحِها، وعطَّلَ مُراعاتَها، وتركَ القيامَ عليها بما يُصلحُها، فما شئتَ من فسادٍ وهلاكٍ وخَيبةٍ وحِرمانٍ!

وهذا هو الذي صارَ أمرُهُ كلُّهُ فُرُطًا؛ فانفرطَ عليه أمرُهُ، وضاعَتْ مصالحُهُ، وأحاطَتْ به أسبابُ القُطُوعِ، والخيبةِ، والهلاكِ.

ولا سبيلَ إلى الأمانِ من ذلك إلا بدوامِ ذكرِ اللهِ تعالى، واللَّهَجِ به، وألَّا يزالَ اللسانُ رطبًا بهِ، وأن يُنزِّلَهُ منزلةَ حياتِهِ التي لا غنى لهُ عنها، ومنزلةَ غذائِهِ الذي إذا فقدَهُ فسدَ جسمُهُ، وهلكَ، وبمنزلةِ الماءِ عندَ شدَّةِ العطشِ، وبمنزلةِ اللباسِ في الحرِّ والبردِ، وبمنزلةِ الكِنِّ في شدَّةِ الشتاءِ، والسَّمومِ.

فحقيقٌ بالعبدِ أن يُنَزِّلَ ذكرَ اللهِ منه بهذه المنزلةِ وأعظَمَ، فأينَ هلاكُ

الرُّوحِ والقلبِ، وفسادُهُمَا من هلاكِ البدنِ وفسادِهِ؟! هذا هلاكٌ لا بدَّ منه، وقد يعقبُهُ صلاحٌ لا بدَّ، وأمَّا هلاكُ القلبِ والرُّوحِ فهلاكٌ لا يُرجَى معهُ صلاحٌ ولا فلاحٌ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ.

ولو لم يكُنْ في فوائدِ الذِّكرِ وإدامَتِهِ إلا هذهِ الفائدةُ وحدَها، لكفى بها، فمن نسيَ اللهَ تعالى أنساهُ نفسَهُ في الدُّنيا ونسيَهُ في العذابِ يومِ القيامةِ؛ قالَ تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦]»[1].



(١) «الوابل الصيب» (ص١٠٤ ـ ١٠٦).



المَوعِظَةُ الثَّالِثَةُ وَالعِشْرُونَ

۞ **قالَ العلَّامةُ الطاهرُ بنُ عاشورٍ (١٣٩٣هـ) رَحِمَهُ اللهُ، في تفسيرِهِ قولَ اللهِ تعالى:** ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣ - ٣٧]:

«وكونُ أقربِ الناسِ للإنسانِ يفِرُّ منهُمْ يقتضي هَوْلَ ذلكَ اليومِ بحيثُ إذا رأى ما يحُلُّ من العذابِ بأقربِ الناسِ إليه توهَّمَ أنَّ الفرارَ منهُ يُنْجيهِ منَ الوقوعِ في مثلِهِ؛ إذ قد علمَ أنَّه كانَ مُماثلًا لهُمْ فيما ارتكبوهُ منَ الأعمالِ، فذُكِرَتْ هنا أصنافٌ منَ القَرابةِ، فإنَّ القرابةَ آصرةٌ تكونُ لها في النفسِ معزَّةٌ وحرصٌ على سلامةِ صاحبِها وكرامتِهِ، والإلفُ يُحدثُ في النفسِ حرصًا على المُلازمةِ والمُقارنةِ، وكلا هذينِ الوجدانَينِ يصدُّ صاحبَهُ عنِ المُفارقةِ، فما ظنُّكَ بهَوْلٍ يغْشَى على هذينِ الوجدانَينِ فلا يَتركُ لهما مجالًا في النفسِ؟!

ورُتِّبَتْ أصنافُ القرابةِ في الآيةِ حسبَ الصعودِ من الصِّنفِ إلى من هو أقوى منهُ؛ تدرُّجًا في تَهْويلِ ذلكَ اليومِ؛ فابتُدِئَ بالأخِ لشدَّةِ اتِّصالِهِ بأخيه من زمنِ الصِّبا فينشأُ بذلكَ إلفٌ بينهُما يستمرُّ طولَ الحياةِ، ثم ارتُقِيَ من الأخِ إلى الأبوينِ وهما أشدُّ قربًا لابْنَيهِما، وقُدِّمَتِ الأمُّ في الذِّكرِ؛ لأنَّ إلْفَ ابنِها بها أقوى منه بأبيهِ وللرعيِ على الفاصلةِ، وانتقلَ إلى الزوجةِ والبنينَ وهما مُجتمعُ عائلةِ الإنسانِ، وأشدُّ الناسِ قربًا به وملازمةً.

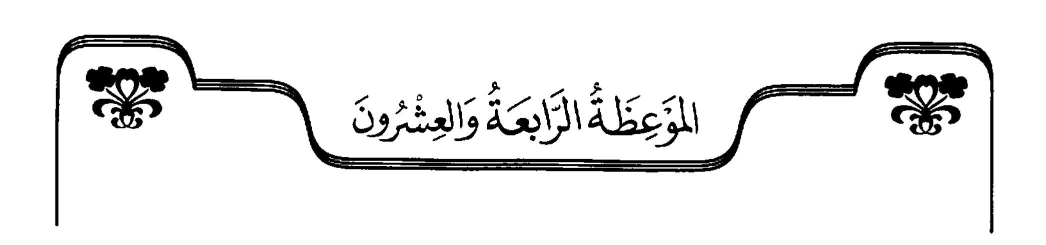
وأطنبَ بتعدادِ هؤلاء الأقرباءِ دونَ أن يُقالَ: يومَ يفرُّ المرءُ من أقربِ قرابتِهِ مثلًا؛ لإحضارِ صُورةِ الهَوْلِ في نفسِ السامعِ، وكلٌّ من هؤلاءِ القَرابةِ إذا قدَّرتَه هو الفارَّ كانَ مَن ذُكِرَ معَه مفرورًا منه، إلَّا قولَهُ: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ لظهورِ أنَّ معناه: والمرأةِ من صاحبِها، ففيهِ اكتفاءٌ، وإنَّما ذُكِرَتْ بوصفِ الصاحبةِ الدالِّ على القُربِ والمُلازمةِ دونَ وصفِ الزوجِ؛ لأنَّ المرأةَ قد تكونُ غيرَ حسنةِ العِشْرةِ لزوجِها، فلا يكونُ فرارُهُ منها كنايةً عن شدَّةِ الهَوْلِ؛ فذُكِرَ بوصفِ الصاحبةِ.

والأقربُ أن هذا فرارُ المؤمنِ من قرابتِهِ المشركينَ؛ خشيةَ أن يُؤاخذَ بتَبِعَتِهم؛ إذ بَقُوا على الكفرِ، وتعليقُ جارِّ الأقرباءِ بفعلِ: ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ يقتضي أنَّهم قد وقعوا في عذابٍ يخشَونَ تعدِّيَهُ إلى مَن يتَّصلُ بهِمْ.

وقد اجتمعَ في قولِهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ إلى آخرِهِ أبلغُ ما يفيدُ هولَ ذلك اليومِ بحيثُ لا يتركُ هولُهُ للمرءِ بقيَّةً من رشدِهِ؛ فإنَّ نفسَ الفرارِ للخائفِ مسبَّةٌ فيما تعارَفُوهُ؛ لدلالتِهِ على جُبنِ صاحبِهِ، وهم يتعيَّرونَ بالجُبنِ، وكونُهُ يتركُ أعزَّ الأعزَّةِ عليه مسبَّةٌ عُظمَى»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «التحرير والتنوير» (٣٠/١١٩).



المَوعِظَةُ الرَّابعَةُ وَالعِشْرُونَ

❁ **قالَ العلامة الإمام أبو عبد الله القُرطبيُّ (٦٧١هـ) رَحِمَهُ اللهُ في تفسيرِ سورةِ التكاثرِ:**

«قالَ العلماءُ: ينبغي لمن أرادَ علاجَ قلبِهِ وانقيادَهُ بسلاسلِ القهرِ إلى طاعةِ ربِّهِ، أن يُكثِرَ من ذكرِ هادمِ اللذَّات، ومفرِّقِ الجماعات، وموتمِ البنينَ والبنات، ويواظبَ على مشاهدةِ المحتضَرِين، وزيارةِ قبورِ أمواتِ المسلمين.

فهذه ثلاثةُ أُمورٍ، ينبغي لمَن قسا قلبُه، ولَزِمَهُ ذنبُه، أن يستعينَ بها على دواءِ دائِهِ، ويستصرخَ بها على فِتَنِ الشيطانِ وأعوانِهِ، فإنِ انتفعَ بالإكثارِ من ذكرِ الموتِ، وانجلَتْ بهِ قساوةُ قلبِهِ فذاكَ، وإن عظُمَ عليهِ رانُ قلبِهِ، واستحكمَتْ فيه دواعي الذَّنبِ، فإنَّ مشاهدةَ المُحتضَرينَ، وزيارةَ قبورِ أمواتِ المسلمين، تبلغُ في دفعِ ذلك ما لا يبلغُهُ الأولُ؛ لأنَّ ذكرَ الموتِ إخبارٌ للقلبِ بما إليهِ المصير، وقائمٌ له مقامَ التخويفِ والتحذير.

وفي مشاهدةِ مَنِ احتُضِرَ، وزيارةِ قبرِ مَن ماتَ من المسلمين معاينةٌ ومشاهدةٌ؛ فلذلكَ كانَ أبلغَ من الأوَّلِ...

فأمَّا الاعتبارُ بحالِ المحتضَرِينَ، فغيرُ ممكنٍ في كلِّ الأوقات، وقد لا يتفقُ لمَنْ أرادَ علاجَ قلبِهِ في ساعةٍ من الساعات.

وأمَّا زيارة القبور فوجودُها أسرعُ، والانتفاعُ بها أَلْيَقُ وأجْدَرُ.

❁ فينبغي لمَن عزمَ على الزيارةِ، أن يتأدَّبَ بآدابِها، ويُحضرَ قلبَهُ في إتيانِها، ولا يكونَ حظُّهُ منها التَّطوافَ على الأجداثِ فقطْ، فإنَّ هذهِ حالةٌ تشاركُهُ فيها بهيمةٌ ـ ونعوذُ باللهِ من ذلكَ ـ بل يقصدُ بزيارتِهِ وجهَ اللهِ تعالى، وإصلاحَ فسادِ قلبِهِ، أو نفعَ الميِّتِ. . .

ثم يعتبرُ بمن صارَ تحتَ التراب، وانقطعَ عن الأهلِ والأحباب، بعدَ أن قادَ الجيوشَ والعَساكِر، ونافسَ الأصحابَ والعَشائِر، وجمعَ الأموالَ والذَّخائر، فجاءَهُ الموتُ في وقتٍ لم يحتسِبْه، وهَوْلٍ لم يرتقِبْه.

فليتأمَّلِ الزائرُ حالَ مَن مضى من إخوانِه، ودرجَ من أقرانِه، الذينَ بلغُوا الآمال، وجمعُوا الأموال، كيف انقطعَتْ آمالُهُم، ولم تُغْنِ عنهُمْ أموالُهُم، ومحا الترابُ محاسنَ وجوهِهِم، وافترقَتْ في القُبورِ أجزاؤُهُم، وترمَّلَ من بعدِهِمْ نساؤُهُم، وشَمِلَ ذلُّ اليُتمِ أولادَهم، واقتسمَ غيرُهم طريفَهُم وتِلادَهُم.

وليتذكَّرْ تردُّدَهم في المآرِب، وحِرصَهُمْ على نَيْلِ المَطالِب، وانخداعَهم لمُواتاةِ الأسباب، وركونَهم إلى الصحَّةِ والشباب.

وليعلَمْ أنَّ ميلَهُ إلى اللهوِ واللعبِ كميلِهم، وغفلتَهُ عمَّا بينَ يديه منَ الموتِ الفظيعِ، والهلاكِ السريعِ، كغفلتِهم، وأنَّه لا بدَّ صائرٌ إلى مصيرِهم.

وليُحْضِرْ بقلبِهِ ذكرَ مَن كانَ متردِّدًا في أغراضِهِ، وكيفَ تهدَّمَتْ رِجلاه، وكانَ يتلذَّذُ بالنظرِ إلى ما خُوِّلَهُ وقد سالَتْ عَيناه، ويصولُ ببلاغةِ

نُطقِهِ وقد أكلَ الدُّودُ لسانَه، ويضحَكُ لمُواتاةِ دَهرِهِ وقد أبلى التُّرابُ أسنانَه، وليتحقَّقْ أنَّ حالَهُ كحالِه، ومآلَهُ كمَآلِه.

وعندَ هذا التذكُّرِ والاعتبارِ تزولُ عنهُ جميعُ الأغيارِ الدُّنيويَّة، ويُقبِلُ على الأعمالِ الأُخرويَّة، فيزهدُ في دُنياه، ويُقبِلُ على طاعةِ مَولاه، ويلينُ قلبُهُ، وتخشعُ جوارحُهُ»[1].



(١) «تفسير القرطبي» (٢٠/١١٧).

فِهْرِسُ المَوْضُوعَات

المَوْضُوعُ	الصَّفْحَة